

كَيْفَ تَبْلُغُ الصَّدِيقَ

عباس محمد العفاد



المحرران: عبد قريه الصديق ،
المؤلف: عباس محمود العقاد ،
إشراف علم: داليا محمد إبراهيم ،
تاريخ النشر: الطبعة السادسة - مارس 2005 م .
رقم الإيداع: 2003/ 10054
الترقيم الدولي: ISBN 977-14-1774-9



الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد غرابي - المنهجي - الجيزة
ت: 3480431 - 3472844 (02) فاكس: 3482276 - ص ب 21 إسيوط
البريد الإلكتروني لإدارة العامة للنشر: publishing@nabdetnaser.com

الطبع: 80 المظلة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330288 (02) - فاكس: 8330286 (02)
البريد الإلكتروني للطابع: press@nabdetnaser.com

مركز التوزيع الرئيسي: 12 ش كامل صديقي - القضاة -
القاهرة - ص ب 96 القضاة - القاهرة
ت: 1909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم الموالي:
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales@nabdetnaser.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (وشدي)
ص ب 523068 (03)
مركز التوزيع بالقاهرة: 47 شارع عبد السلام - عراف
ص ب 2259695 (050)

موقع الشركة على الإنترنت:
www.enahda.com
موقع البيع على الإنترنت:



احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
وشتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع
www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

تقديم

فى تقديم كتابى هذا عن أبى بكر الصديق أقول ما قلته فى «عبقريه محمد» و«عبقريه عمر» وكل كتاب من هذا القبيل ، وفحواه أنتى لا أكتب ترجمة للصديق عليه السلام ، ولا أكتب تاريخاً لخلافته وحوادث عصره ، ولا أعنى بالوقائع من حيث هى وقائع ولا بالأخبار من حيث هى أخبار ، فهذه موضوعات لم أقصدها ولم أذكر فى عناوين الكتب ما يعد القارئ بها ويوجه استطلاعاً إليها ، ولكنما قصدت أن أرسم للصديق صورة نفسية ، نعرفنا به وتجعلونا خلائقه وبواعث أعماله ، كما تجلو الصورة ملامح من تراه بالعين . فلا تعيننا الوقائع والأخبار إلا بمقدار ما تؤدي أداءها فى هذا المقصد الذى لا مقصد لنا غيره ، وهى قد تكبر أو تصغر فلا يهمنا منها الكبير أو الصغير إلا بذلك المقدار ، ولعل حادثاً صغيراً يستحق منا التقديم على أكبر الحوادث إذا كانت فيه دلالة نفسية أكبر من دلالته ، ولحجة مصورة أظهر من لحنه . بل لعل كلمة من الكلمات الموجزة التى تحيى عرضاً فى بعض المناسبات تتقدم لهذا السبب على الحوادث كبيرها وصغيرها فى مقياس التاريخ .

ومن ههنا أن تكون الصورة صادقة كل الصديق فى جملتها وتفصيلها . . . فليس من غرضنا التجميل الذى يخرج بالصورة عن حقيقتها ، ولسنا نريد أن يطلع القارئ على تلك الصورة فلا يعرفها ولا يعرف أباً بكر منها ، ولكن تجميل الصورة شئ ، وتوقير صاحبها شئ آخر ، فإنك إذا صورت أباً بكر ورفعت صورته مكاناً علياً لم تكن قد أضفت إليه جمالاً غير جماله أو غيرت ملامحه النفسية بحيث تخفى على من يعرفها ، فهذا هو التوقير الذى لا يُخل بالصورة ولا يعاب على المصور ، وليس هو التجميل المصطنع الذى يُضلل الناظر عن الحقيقة .

فكل فضيلة أثبتناها لأبى بكر فى هذه الصفحات فهى فضيلته التى لا نزاع فيها ، وكل عمل استطاعه ووصفناه بقدرته فقد استطاعه بغير جدال ، وما من

عَمَل لم يعمل قلنا إنه قد عمله ، ولا من قدرة لم تظهر منه جعلناها من صنوف قدرته ، ثم يتوسمحه القارئ بعد هذا فيرى صورة مميزة بين صور العظماء من أمثاله ، فهو محمود موقر وعمر بن الخطاب في صورته محمود موقر ، ولكنهما مع ذلك لا يتشابهان ولا يتراعى أحدهما في ملامح الآخر ، وهذا قصارك من صدق الصورة في تمييز الرجل بين نظرائه ، وفي تمثيله بما فيه وما ليس فيه .

إنك حين تعدد ثروة رجل فتقول : إنه صاحب عشرة بيوت ، لا يلزمك بعد ذلك أن تقول : ولكنه ليس بصاحب أرض زراعية ولا أوراق مالية ولا معامل صناعية ولا مرتبات حكومية ، وإذا أنت سكنت عن هذا قاصداً أو غير قاصد لم يجز لأحد أن يلومك أو يظن بك تعمد الإخفاء والسكوت ، فحسبك أنك ذكرت ثروته الصحيحة ولم تُضيف إليه ما ليس من ماله لتكون قد أعلمت من يريد العلم بثروته غاية ما ينبغي أن يعلم .

وكذلك الشأن في ثروات النفوس حين يحصيها المقلِّدون : تصدق إن ذكرت له ما يملك ، ولا يفوتك الصديق إن فأنك أن تحصى كل ما ليس له بملك ، فليس هذا بغرض من أغراض الإحصاء أو التعريف .

ومن هنا الذي نتوخاه في الكتابة عن العظماء الذين حسنت نياتهم في خدمة الإنسان أن نوفيهم حقهم من الشوقير ، وأن نرفع صورهم إلى مكان التجلية ، وإن لم يمنعنا هذا أن نصدقهم الوصف والتصوير وقد عبرت عن هذا للمذهب شعراً قبل ثلاثين سنة فقلت من أبيات :

لا تُلحْ ذا بأس وذا همه	على ذنوب العُصبة الغلب
فليس مقياسك مقياسهم	ولا هم مثلك في المأرب
انظر إلى ما خلقوا بعدهم	من المعالي ثم لم واعتب
من ركب الهائل من أمره	فعدره في ذلك المركب

ونحسب هذا المذهب في زماننا هذا أوجب مما كان في الأزمان الغابرة ، لأن

الأسباب التي تُغضُّ من وقار العظمة لم تزل تتكاثر منذ القرن الثامن عشر إلى الآن ، وهي بما يحدث عفوًا في بعض الأحيان ، وبما يأتي قصصًا في أحيان أخرى ، وقد تفيد الإشارة إليها في اتقانها إذا كان إلى اتقانها سبيل .

بدأت هذه الأسباب بغهم سبب للمنازعات التي شجرت بين رجال العلم ورجال الدين منذ النهضة العلمية الحديثة . فقرر في بعض الأذهان أن العلم الحديث قد ألغى ما قبله من جهود المصلحين وطلاب المعرفة الإلهية والديوية وخطأت أناس بين دعاة الأديان الذين أخلصوا العقيدة في الإصلاح وبين رجال الأديان الذين استغلوا العقائد وتعمدوا إنكار الحقائق ووقفوا بعنادهم ولجاجتهم عقبة في طريق التقدم والتهذيب .

فالمصلحون من عظماء الأديان أهل لكل تعظيم واعتراف بالجميل ، لا يعيبهم أنهم سبقوا عصر العلم الحديث ، بل يُزكِّيهم ذلك ويضاعف حقهم في الشناء وعرفان الجميل ، ويدل على أن الحاجة إليهم كانت أمسَّ وألزم وأنهم كانوا في خدمتهم الإنسانية أقدر وأعظم ، مع ما هو مفهوم من الفارق بين حاجة الناس إلى الدين وحاجتهم إلى العلوم . فهذه حاجة ذهنية وتلك حاجة حيوية أو روحية لا تغنى فيها علوم العلماء .

ثم جاءت الديمقراطية وأساء بعض الناس فهمها كما أساءوا فهم النزاع بين العلم والدين ، فظنوا أن حرية الصغير تجعله في وصف الكبير ، وأن المساواة القانونية تلغى الفوارق الطبيعية ، وأن الثورة على الرؤساء المستبدين معناها الثورة على كل ذي مكانة من العظماء ، وهو وهم ظاهر البطلان ولكنه قد سرى مسراه إلى الأذهان ، فكثرت التطاول على كل عظمة إنسانية ، وفشت بدعة الاستخفاف والزراية حتى أوشت التوقير لمن يستحق التوقير أن يعاب .

ثم جاءت الشيوعية وهي قائمة على أن الأبطال هتاتع المجتمع وليسوا بأصحاب الفضل عليه ، وأن تعظيم الأبطال القابرين يصرف الناس عن عيوب

النظم الاجتماعية التي أنشأت أولئك الأبطال فخدموها قاصدين مدبرين أو على غير قصد منهم وتدبير ، وأفرط الشيوعيون في تلويث كل عظمة يؤدي تويرها إلى نقض مذهبهم ومخالفة دعوتهم ، حتى بلغ من سخفهم في هذا أنهم غيروا أبطال الروايات في مسرحيات شكسبير وأمثاله فعرضوا «هملت» على المسرح لثيمًا مأكراً سيئ النية على خلاف ما صوّره الشاعر ، لأن تصوير أمير من أمراء القرون الوسطى في صورة حسنة يُخلُّ بما قرروه عن النظم الاجتماعية والسياسية في تلك القرون .

وتكاثرت على هذا النحو أسباب الغش من العظماء حتى صبح عندنا أن العظمة في حاجة إلى ما يسمى بهرد الاعتبار في لغة القانون ، فإن الإنسانية لا تعرف حقاً من الحقوق إن لم تعرف حق عظمائها ، وإن الإنسانية كلها ليست بشيء - إذ كانت العظمة الإنسانية في قديمها أو حديثها ليست بشيء .

ومن ثمّ مذهبنا في توير العظمة مع التفرقة بين التوير المحمود والتجميل المصطنع الذي يعيب المصور ويغفل الناظر إلى الصورة . فليس لنا أن نُثبت جمالاً غير ثابت ، ولكن - لنا - بل علينا - متى أثبتنا الجمال في مكانه أن نرفع الصورة إلى مقام التوير .

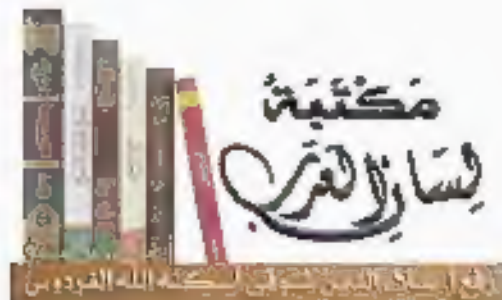
قال زميلنا الباحث الفاضل الأستاذ أحمد أمين من نقده لكتاب الدكتور هيكل (باشا) في الصديق وكتابه في عبقريّة عمر : . . . بقيت مسألة هامة كثيراً ما اختلفت وجهة نظر الكتاب فيها ، وهي أن العظيم مهما عظم له خطّات ، وإلا ما كان إنساناً والعصمة لله وحده . فهل واجب المترجم له أن يعرض لكل ذلك في تفصيل ، فيذكر كل ما له ويشيد بذكره ، ويذكر خطّاته وينقدها ، ويعلم بذلك درساً في نواحي مجده ، ودرساً آخر في مواضع خطّته ، أو واجبه فقط تجلية نواحي العظمة والتأويل والدفاع الدائم عن نواحي الخطأ؟ أنا أرى أن الرأي الأول أرجب ، متأسياً بأبي بكر وعمر نفسيهما ، والمؤلفان الغاضلان إلى الرأي الثاني أميل .

والواقع أننا إلى الرأي الشالى أميل كما قال زميلنا الأستاذ ، ولكنه الميل الذى نُجلبه بما قدمناه من حدود ، ونحتج له بما بيناه من أسباب .

ويخيل إلينا أن الأستاذ نفسه يستطيع هذا الميل حين قال فى صدر مقاله عن الكتابين : ... إن الأوروبيين قد وجدوا من علمائهم من يشيد بعظمايتهم ويستقصى نواحي مجدهم ، بل قد دعتهم العصبية أحياناً أن يتزئدوا فى نواحي هذه العظمة ، ويُعملوا الخيال فى تبرير العيب وتكميل النقص تحميساً للنفس وإثارة لطلب الكمال . أما نحن فقد كان بيننا وبين عظمائنا سدودٌ وحواجزٌ حالت بين شبابنا وجمهورنا والاستفادة منهم

فهذه السدود كثيرة فى الشرق ، كثيرة فى العصر الحاضر حيث كان ، وهى التى تُجيز لنا - بل تفرض علينا - أن نوقى العظماء حقهم من التوقير ، وأن نصورهم كما خلقهم الله ، ثم لا علينا أن نرفع الصورة حيث شئنا بعد الصدق فى التصوير .

عباس محمود العقاد





اسم وصفة

عُرف الخليفة الأول في التاريخ بأسماء كثيرة : أشهرها أبو بكر والصدّيق ،
وبليهما في الشهرة عتيق وعبدالله .

وقيل إنه عُرف بهذه الأسماء أو الألقاب في الإسلام والجاهلية على السواء .
عُرف في الجاهلية بلقب الصدّيق لأنه كان يتولى أمر الديّات وينوب فيها عن
قريش ، فما تولاه من هذه الديّات صدّفته قريش فيه وقيلته ، وما تولاه غيره
خلفته وتردّدت في قبوله وإمضائه .

وعُرف بالعتيق لجمال وجهه ، من العتاقة وهي الجودة في كل شيء ، وقيل :
بل من العتق ، لأن أمه لم يكن يعيش لها ولد فاستقبلت به الكعبة وقالت :
اللهم إن هذا عتيقك من النار فهبه لي . فعاش فعرف باسم عتيق . . . وقيل
غير ذلك : إنه أحد ثلاثة أبناء هم : عتيق ومُعتق ومُعيتيق ، سموا بذلك
تفاؤلاً بالعيش والعتق من الموت .

وعرف كما قيل في بعض الروايات باسم عبد الكعبة في الجاهلية ، ثم
عبدالله في الإسلام .

وسُمي في الإسلام بالصدّيق لأنه صدّق النبي ﷺ في حديث الإسراء ،
وبالعتيق لأنه عليه السلام بشره بالعتق من النار .

ومن الجائز أنه عُرف بهذه الألقاب على محملها في الجاهلية ومحملها في
الإسلام ففي حياته وسيرته قبل الإسلام وبعده ما يُحقق هذه التسمية أو هذا
التلقيب .

وُلد للمستة الشامية أو الثالثة من همام القليل ، فهو أصغر من النبي ﷺ بنحو
ستين ، وهو عبدالله بن عثمان الذي عُرف باسم أبي قحافة ، ويُلحق نسبته ونسب
النبي ﷺ عند مرة بن كعب ، بعد ستة أيام ، وكلاً أبويه من بني تيم ، وهم قوم

اشتهر رجالهم بالتمائة والأدب ، واشتهر نساؤهم بالنك والحظوة ، وقيل إن بنات
 تيم أدل النساء وأحظاهن عند الأزواج . وربما كان مرجع ذلك إلى طول عهد القبيلة
 بحياة المدينة وأشغالها ، وأن اشتغالها بالتجارة كان يقوم على المودة وحسن المعاملة
 ولا يقوم على بسطة النفوذ وصوله الوفرة والغلبة . فبنو أمية - مثلاً - كانوا يتجرون
 وكان زعيمهم أبو سفيان يرسل القوافل بين الحجاز والشام ، ولكنها قوافل أشبه
 بالحمالات والبعوث ، معولهم فيها على الوفرة والوفرة ، وليست كذلك بحجارة أبي بكر
 وإخوانه من أبناء البُطون الفرشبة التي لها شرف النسب في غير مكاثرة بالعُدَّة
 والمُدة ، ومغالبة بالصولة ودهاء القوة ، كمغالبة الأميين .

ومهما يكن من أثر المعاملة الودية وآداب الأسرة والمدينة في بنى تيم ، فهذه
 الآداب واضحة في أسرة الصديق عليه السلام أجمل وضوح ، لم نذكر لنا قط أسرة
 كانت في عصره على مودة أجمل من المودة التي اتصلت بينه وبين أبيه وأمه
 وأبنائه ، مدى الحياة . وقد كان له ابن حارِب في صفوف المشركين ، وأوشك أن
 يكون بينه وبين أبيه قتال ، ولكننا إذا تجاوزنا هذه القلعة من فلتات السن رجعتنا
 إلى أبوة لا عقوق فيها بعد اعتداء ذلك الابن إلى الإسلام ، كما اهتدى إليه
 سائر قومه .

عاش أبو قحافة حتى رأى ابنه خليفة يرفع صورته على أناس لم يكن في مكة
 أرفع منهم صوتاً وأعظم خطراً ، وكان مكفوف البصر على باب داره بمكة يوم أقبل
 أبو بكر إليها مُحتسراً بعد مبايعته بالخلافة ، فقيل له : هذا ابنك ! فنهض
 يتلقاه ، وراه ابنه يهْم بالنهوض فمَجَل نازلاً من راحلته وهي واقفة قبل أن
 يُنِيعها ، وجعل يقول : يا أبت لا تقم ! ثم لاقاه والتزمه وقبل بين عينيه ، ولم
 ينتظر - وهو في نحو الستين - أن يُنِيع راحلته لينزل منها ، مخافة على أبيه من
 مشقة النهوض .

ودعا الخليفة بأبي سفيان لأمر أنكره فأخذته الحدة التي كانت تراجمه في
 بعض ثورات نفسه ، وأقبل يصيح على أبي سفيان وهو يلين له ويسترضيه فسأل
 أبو قحافة قائده : على من يصيح ابني ؟ فقال : على أبي سفيان ! ... فدنا منه

يقول له وفي كلامه من العبطة أكثر مما فيه من الإنكار ، وفيه من دهاء الطيبة أكثر مما فيه من سهو الشينخوحة . أعلى أبى سميان تصيح وترفع صوتك يا عتيق ؟ لقد غدت طورك وجزت مقدارك !

فابتسم أبو بكر والصحابه ، وقال لأبيه المتكبر فى رصاه الراصى فى إنكاره : يا أبت إن الله رفع بالإسلام قوماً وأذل به آخرين .

وهذه الطيبة التى لا تخلو من دهائها هى التى ظهرت من هذا الأب الصالح ، يوم نعوذ إليه رسول الله فقال : أمر جَلَل . وسأل : ومن ولى الأمر بعده ؟ قالوا ابنك ؛ فعاد يسأل : فهل رصيت بذلك بنو عبد مناف وبنو المغيرة ؟ قالوا : نعم . . قال : لا مانع لما أعطى الله ، ولا معطى لما منع !

بل هذه الطيبة التى لا تخلو من دهائها هى التى ظهرت منه حين هاجر ابنه مع السى ﷺ فأقبل على أحفاده يسألهم : ما ترك لكم بعد هجرته من المال ؟ وهى التى ظهرت منه حين ذهب ابنه يُنفق من ماله لإعتاق الأرقاء الدين عديهم المشركون فكان يقول : لو أنك إذا فعلت ما فعلت أعتقت رجلاً جُلداً يعمونك ويقومون دونك ؟ ويقول له انه : يا أبت إنى أريد ما عند الله

ثم عاش الأب الصالح حتى فُهِص ابنه العظيم فرد ميراثه منه إلى أحفاده وسأل حين بلغته وفاته وهو يقول : رزء جَلَل ، رزء جَلَل . فمن ولى الأمر بعده ؟ قالوا : عمر ؛ قال : صاحبه . . يعنى صاحب الأمر أو صاحب الصديق ، فى إيجاز كافٍ لإيجاز ابنه العظيم ،

كثير مما فى أبى بكر من هذا الأب الصالح طيبة فى يقظة فى استقامة ، وزيد عليه ابنه فى كل وصف حميد .

الصدّيق الأوّل والخليفة الأوّل

فى رواية من أشهر الرويات عن مرمى النبى ﷺ أن مؤدّه بلالا جاء،
يومًا، وقد اشتد به المرض فقال عليه السلام :

مُرُوا أبَا بَكْرٍ فليصل بالناس

قالت عائشة رضى الله عنها :

يا رسول الله ! إن أبَا بَكْرٍ راحل أسيف ، وإنه متى يقيم مقامك لا يسمع
الناس . فلو أمرت عمر ؟

فقال عليه السلام مرة أخرى

مرو أبَا بَكْرٍ فليصل بالناس .

فعادت عائشة تقول لحفصة

هولى له : إن أبَا بَكْرٍ راحل أسيف ، وإنه متى يقيم مقامك لا يسمع الناس .
فلو أمرت عمر ؟

فأعادت حفصة ما قالت له عائشة

وصحّر عليه السلام من هذه المراجعة ، فقال :

إِن كُنْتُ أُنْثَى صَوَّاحِبِ يَوْسُفَ . ثم قال لثالث مرة : مرو أبَا بَكْرٍ فليصل بالناس .

و روى عبد الله بن زمعة أنه خرج من عند النبى ، فإذا عمر فى المسجد
وأبو بكر عائب فقال يا عمر . قم فصل بالناس . فتقدم فكبر ، وكان رجلاً
مجهراً ، فلف سمع رسول الله ﷺ صوته سال . فأين أبو بكر؟ يا بى الله ذلك
والمسلمون ، يا بى الله ذلك والمسلمون

ولام عمر عبد الله بن زمعة قائلاً :

ويحك ! ما صنعت بى يا ابن زمعة؟ والله ما ظننت حين أمرتنى إلا أن
رسول الله ﷺ أمرك بذلك . ولولا ذلك ما صليت بالناس

قال ابن زمعنه :

والله ما أمرني رسول الله ﷺ بشيء ، ولكني حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضور الصلاة بالنس .

وموضع العجب في هذه الرواية تردد السيدة عائشة رضي الله عنها في تبليغ أمر النبي بإقامة أبيها مقامه في الصلاة ، وقد تكرر الأمر أكثر من مرة .

فهذا التردد عجيب من وجوه

عجيب أن تتردد في تبليغ أمر محمد عليه السلام ، وهو الزوج المحبوب والنبي المطاع .

وعجيب أن تتردد في تبليغه ، وهو تشریف لأبيها بمقام كرم تتناول إليه الرقاب .

ويزيد عجبا أن يحدث في شدة المرض والنبي مُجهد يطلب الراحة ، وهي أشد نساؤه سهرا عليه في مرضه ، وأرحاهم له بما يريحه ، ويخفف الجهد عنه

نعم إن عائشة رضي الله عنها كانت أكثر الناس دالة على السبي وأجرأهم على مراجعته ، والباطل في إبلاغه ما يهيب القوم أن يبلغوه . فلتن كانت هي أولى الناس أن تطيعه وتبلغ أمره ، لقد كانت كذلك تعلم من مكانتها عنده ما يُسبح لها أن تراجع وتأمين غضبه ، لدألها عليه وثقته من مصمر حبها له وامثالها لأمره .

إلا أنها قد بلغت مكان الدالة عند رسول الله بما لها من صفات كثيرة غير الصُّباحة والجمال ، وأول تلك الصفات حرط الذكاء ولطافة الحس وحسن التقدير ،

وحليق بمن كانت في مثل ذكائها ولطافة حسها وحسن تقديرها أن تفتن إلى الحد في ذلك الموقف العصيب ، وفي ذلك الملاغ الخطير .

وهيهات أن تتردد يومئذ عن دلال في غير موضعه ، ولا سياب غير السب الذي يمكن أن يوحى إليها ذلك لتردد ، ولا بد له من مسب عظيم

ولقد كان له سبب عظيم .

بل هو أعظم الأسباب التي يمكن أن توحى إليها ذلك التردد ، ولولا لما أقدمت عليه

وما بحسب أن شيئاً حمظته الروايات التاريخية لما عن ذكاء السيدة عائشة يدل على قوة ذلك الذكاء ، كما دل عليه ترددها في ذلك الموقف العصيب .

يكفى أن يستحضر اليوم ما قيل عن الخلافة بعد النبي عليه السلام لمعلم مبلغ ذلك الذكاء العجيب في مستقبل الشباب ، ونكبر ذلك النظر الناقد إلى أبعد العواقب ، ونلتصم لها العذر الذي يجعل بامرأة أحسنها محمد ذلك الحب وأعزها ذلك الإعزاز .

فقد قيل في الخلافة بعد النبي كثير :

قيل فيها ما يخطر على بال الأكثرين ، وما يحظر على بال الأقلين ، وما ليس يحظر على بال أحد إلا أن يجمع به الثعنت والاعتساف أعرب جماع قيل :

إن وصول الخلافة إلى أبي بكر إنما كان مؤامرة بين عائشة وأبيها وقيل :

إنه كان مؤامرة بين رجال ثلاثة أعانتهم عائشة على ما تأمروا فيه ، بما كان لها من الخطوة عند رسول الله ، وكان هؤلاء الرجال على رعم أو ثلك القائلين أن بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح ، وهم الذين أسرعوا من المهاجرين - إلى سقيفة بني ساعدة ليُدرَكوا الألبار قبل أن يتفقوا على اختيار أمير أو خليفة لرسول الله

وقيل : إن هؤلاء الرجال الثلاثة اتفقوا على تعاقب الحكم واحداً بعد واحد أبو بكر فعمر فأبو عبيدة ، ولهذا قال عمر حين حضرته الوفاة : لو كان أبو عبيدة حياً لعهدت إليه لأنه أمين لامة ، كما قال فيه رسول الله ، وهذا زعم رؤجه بعض المستشرقين وكفى بين القراء الأوربيين كثيراً من القبول ، لأنه شبيه

في عهدوه في أمثال هذه الموقف من أحداث التدبير والتمهيد وروايات التواطؤ والائتمار .

فالسيدة عائشة مسعودة لحظ لامرء ، لأنها لم تحالف محمداً قط في أمر خطير ، وحين خالفته أو ترددت في سلب كلامه في أمر من أخطر الأمور ، كان هذا التردد أدل على مكانتها ومفضلها وعلى استحقاقها لمزلة الإيثار في ذلك القلب العظيم ،

فهي قد ترددت لتبرئ نفسها من القالة ، وتبرئ ذلك الموقف الخطير من المظنة ، وتبرئ الخلافة من أسباب الادعاء ، وقد يكون فيها ضعف وإيذاء .

وأشهدت على نفسها أولى الناس بالشهادة في ذلك الموقف الخطير حفصة بنت عمر رضي الله عنهما

فإذا علمت حفصة أن عائشة راجعت رسول الله مرتين في تبليغ الأمر إلى أبيها أن يصلي بالناس ، فقد علمت ذلك من هي أحق بعلمه من سائر أمهات المسلمين ، إذ كان عمر رضي الله عنه أحد اثنين في حق الخلافة لا يذكر أحدهما إلا ذكر الآخر ، كما ظهر ذلك من وقع الأمور ، أو كما ظهر من قول عبد الله بن ربيعة لعمر :

«حين لم أريا بكر رأيتك أحق من حصر بالصلاة بالناس»

فردد عائشة في ذلك الموقف الخطير لم يضر بل نفع ، وكان أسع من إسراعها بالتبليغ ، وأول ما نفع به أنه أظهر رعة النبي طهاراً لا محال للمظنة فيه ، فكان ذلك من أدعى دواعي الانعقاد على الاحتمار وقطع السبيل على الفتنة والشقاق

نعم إن رواية من الروايات تزعم لنا أن السيدة عائشة رضي الله عنها ترددت في التبليغ لأنها أشققت أن ينشأ من الناس برؤية أبيها في مقام يذكرهم بالخطر على أحب الناس إليهم في ذلك المقام ، وتلك ساذجة يجوز أن يستع لها وهي أسد الناس إحساساً بذلك التشاؤم ووقعه في نفوس المسلمين . ولكننا إذا سلمنا أنها رضي الله عنها قد نعمت الإبطاء في التبليغ ، فالسبب الذي أومأنا إليه أننا أولى وأليق بالمعهود من ذلك أنها وحلقها الكريم لأنها لا عهد للنبي في

مرصه ولا نفوت على أيها شرف الخلافة حذرًا عن التشاؤم وحده ، ثم هي لا تدعو حفصة إلى عريض عمر لموقف تصون عنه أباهما . فإن كان نعتًا للإبطاء في التبليغ فذلك السبب الذي أومأنا إليه آنفًا أحق الأسباب أن يرجح على غيره لتفسير ذلك الإبطاء ، فهو أدعى أن يسئل به العجب ولا يمتنع مع هذا أن يفترنا بغيره من الأسباب .



ويقول العجب من تردد السيدة عائشة كلما أرداد العجب من تلك العروص والآقاويل التي خاص فيها من خاص عن «مؤامرة» الخلافة المزعومة ، وليس لها سد من التاريخ ، ولا من التفكير القويم ، ولا من المعهود في أخلاق الرجال والنساء الذين عُرِيت إليهم تلك المؤامرة بغير بيئة قاطعة ولا ظن راجح

فليس في شيء رواء الرواة عن الخلافة بعد النبي عليه السلام كلمة واحدة تُرجح تلك العروص والآقاويل ، سواء كنا قائلها عن أسرعوها إلى بيعة الصديق أو تباطؤوا في بيعته ، أو قصصوا حياتهم ولم يبايعوه .

وليس في شيء من خلائق أبي بكر وعمر وأبي عبيدة إلى عهدنا الناس منهم في حبة النبي أو بعد وفاته ما يأتى لتوهم أن تتوهم فيهم التآمر على خلافته وهو بعيد الحياة ، دون أن يظلموه على حيلة أو دققة عما يتكبرون فيه

وليس في سيرة أبي بكر وعمر بعد أن ولما الخلافة ما سم على طمع في استطوة ، وحرص على زهو الملك يعريهما باستباحة ثقة النبي في حياته بما لا يليق وهو عندهما يمكن من التَّجَنُّة وحب لا تتطرق إليه الشكوك ولا ترتفع إليه التَّشَبُّهات

وعلى نصيص ذلك نذكر الحوادث والروايات التاريخية على أن الأمر قد وقع منهم جميعًا موقع المفاجأة التي لم يدبروا فيها إلا بعد وقوعها ، ولم يبرموا فيها الرأي على بحر من الأبحاء قبل اجتماع الأنصار سقيفة بني ساعدة

والأقول تنفق - أو تكاد تنفق - على أن أبا بكر لم يكن قريبًا من النبي عليه السلام يوم أمر النبي بلالاً أن يدعو إلى الصلاة بالناس ، ولو كان بينه

وبين السيدة عائشة اتفاق في هذا الصدد لكان اقترابه من المسجد أو بيت النبي في تلك اللحظة لازماً كل اللزوم لإنجاز ذلك الاتفاق ، ولا توجهت الدعوة إلى غيره وخرج الأمر من أيدي المتفقين ،

وقد توفي النبي عليه السلام وليس في أصحابه الأقربين من كان يتوقع وفاته ، فتركه أبو بكر بعد الصلاة وهو يقول : يا سي الله! بي أراك قد أصبحت بركة من الله وحصل كما نحب واليوم يوم ننت حارجه ، أفأنسها؟

فأذن له النبي في الانصراف وخرج أبو بكر إلى «الشح» حيث كان يقيم . أما عمر فقد دهش لشئ النبي تلك الدهشة التي لم يكن لها على أهبة ، ولو كان على أهبة لها لقد كان الأخرى أن يؤكد الوفاة ولا يستغربها ، فهيدا لذلك الاتفاق المزعوم الذي سمعوها .

وبعد أبا بكر وعمر أن الأصار مجتمعون في سقيفة بني ساعدة لاختيار الخليفة منهم ، فخرجوا إلى السقيفة على غير اتفاق بينهما أيهما الذي يخاطب القوم فكان عمر يخشى حدة أبي بكر فيهمين في نفسه كلاماً يقوله : وكان أبو بكر يخشى حدة عمر فيسئمهله ويحاطب القوم قبله ، وليس في ذلك دليل اتفاق قديم .

وكان لقاؤهما أبا عبيدة يومئذ لقاء مصادقة في الطريق .

وجاء في رواية مشهورة أن عمر فاتح أبا عبيدة قبل ذلك فقال له

أبسط يدك فلا بايعك فأت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله .

فقال له أبو عبيدة

ما رأيت لك هبة^(١) قبلها منذ أصبحت . أسايحي وبيكم الصديق وثاني

فإد صحت هذه الرواية فهي تنفي ما قيل عن تفاهم هؤلاء الرجال الثلاثة على مبايعة أبي بكر وتعاقب الخلافة بعده ، وقد يكون عمر فاتح أبا عبيدة عازماً على مبايعته ، أوفاته لاستطلاع ما عنده من الرأي والرغبة ، فعلى كذا الحالين لا تفاهم من قبل على ذلك الرأي ولا اتفاق

(١) الهبة الزنة .

هكذا تلقى الصحاب الأجلاء نعى النبی ، وهكذا كانوا فی أثناء شدة المرض
عليه فمتی كان التفاهم المزعوم؟ أقبل أن یرخص رسول الله یعقل عاقل أن یجتمع
صفوة أصحابه والمؤمنین برسائلته للتأمر علی وراثته واغتنام موته؟ إن جاز فی
عقل عاقل هذا ، فمن أدرهم إدد أن القرآن الکریم لا یوحی فی الخلافة غیر
الذی رأوه؟ ومن أدرهم إذن - سلفاً - أن النبی علیه السلام یفارق هذه الدنیا
ولا یوصی فی أمر الخلافة بوصاة یشهدها الناس عامة وتحالف ما اتفقوا علیه؟

إن الأمر لم یکن قابلاً لأن یحصل فیهِ غیر ما حصل ، بعد حساب کل
حساب ، واستقصاء کل فرض ، وتمحیص کل رواية

ولم یکن فیهِ اتفاق مدبر علی صورة من الصور ، وإنما هو كما قال عمر رضی الله عنه
«إن بیعة أبی بکر كانت قلّة ألا وإن الله وقی شرها» .

وما حاجة الأمر إلى تمهید وقد كان فی عنی عن التمهید؟

لقد كان الاختیار أبی بکر للخلافة «خبرة الواقع» الذی لا یحتاج إلى تدبیر ،
بل یقاوم کل تدبیر .

فمن غیر أبی بکر كانت تجتمع له شرائط كما اجتمعت له ، وتلاقى عنده
الوجهات كما تلاقى عنده؟

كانت تجتمع له شرائط السن ، والسبق إلى الإسلام ، وصحبة النبی فی العار ،
والوفّة للرعية بین أجلاء الصحابة ، ومعظمهم من یخلو فی الدین علی یدیه

وكانت أمارات استخلافه ظاهرة من طلائعها الأولى قبل مرض النبی علیه
السلام بسنوات فكان لول أمير للحج بعث به النبی علیه السلام وهو بالمدينة
وكان ذلك سنة تسع من الهجرة ، واتفق فی طریقهِ أنه دعا إلى صلاة الصبح
فسمع رغوهُ ناقة وراء ظهره ، فوقف عن التكبیر وقال :

هذه رغوۃ ناقة النبی ﷺ الجذعاء فلعله أن یكون رسول الله فنصلى معه .
فلما علی بن أبی طالب علی الناقة . فسأله أبو بکر .

أمر أم رسول؟ قال : لا . بل رسول . أرسلنی رسول الله ﷺ بیروۃ أقروها
علی الناس .

فلما قدموا مكة قام أبو بكر فخطب الناس محدثاً عن المناسك ، وقرأ على صورة براءة حتى حتمها ، ثم كان يوم عرفة فخطب أبو بكر وقرأ على السورة ، هكذا حتى انتهت المناسك .

وكان قتال بين جماعة من الأوس فذهب لنبي الله ﷺ يُصلح بينهم وقال لبلال :

إن حضرت الصلاة ولم أت قمراً أبداً بكرو فليُصل بالناس وأثبت البحري من جبير بن مطعم أن امرأة أتت النبي ﷺ فأمرها أن ترحف إليه قالت : أرايت إن حثب فلم أجذك . كأنها تريد الموت . قال : إن لم تجديني فأتني أبداً بكرو .

وهذه أمارات مشهورة متفق عليها ، وغيرها أمارات شتى بعضها أصرح وبعضها أحوح إلى التأويل ، لا ضرورة لاستقصائها لأنها لا تبلغ في الحرم والتوكيد مبلغ ما قدمناه .

وافترنت تلك الأمارات جميعاً أمارات أخرى لا تقل عنها صراحة وتواتراً تدل على رغبة قوية في اجتثاث كل ما يُثير العصبية ، ويلبس الأمر على الجهلاء والمعرضين بين دعوة النبوة وطلب السلطان والامتلاء .

فلا يحسب أن محمداً ﷺ دل بعمله وقوله ومصابين رأيه على شيء وأصبح مطرد كما دل على هذه الرغبة القوية ، ولا ظهر منه الحرص على شيء كما ظهر حرصه على تنزيه انفسه من مطامع السيادة الديوية ومفحرج العصيات .

فأبخص شيء كان إلى نفسه الكريمة قول من كانوا يقولون ، إن النبوة تمهد لدولة هاشمية أو وراثة دُنيوية .

ولهذا افرعه أنه لم يُؤل أحداً من قرنته ولاية أو عمالة في مكة والمدينة أو في خيرهما .

بل بهذا أصهر إلى أبي سميان ، واحد معاوية كاتباً للوحي ، وأمر يوم فتح مكة منادياً ينادى في الناس :

« ... من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبي سميان فهو آمن »
لمسحو من نفوس بني أمة حزازة العصبية بينهم وبين بني هاشم ، ولا يدع في سرائرهم مجالاً للظن بأنها علمة أسرة على أسرة ، أو بطن من قريش على سائر بطونها .

وقال عليه السلام :

« إن هذا الأمر في قريش لا يعديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين » ولم يقل « في بني هاشم » أولى بني عبد المطلب ، ولو شاء لعال

ولا ريب أنه عليه السلام لم يؤثر قريشاً بالأمر يومئذ لأنه يؤثر العصبية لبني هبيلته وقومه ، ولكنه أثرهم للحكمة السياسية البينة التي لا يسهر عنها الهداة المستولون عن مصائر الأمم في عصر من العصور . قريش هم أصحاب السيادة في مكة وهي كعبة الإسلام وعاصمة الدول الإسلامية في ذلك الحين . ولن يعلج دولة بكون أهل العاصمة فيها أول الثائرين عليها والمكرين لدورها

ويغلب على اعتقادنا أنه عليه السلام ترك أمر الخلافة بعير وصية ظاهرة لأنه علم أن الخلافة مُنتهية إلى مثل ما انتهت إليه ، ولا سبيل بعد تقديمه أباً بكر للصلاة بالناس

وعلى « قريش » ولم يسجور ذلك لأنه علم أن قريشاً تنشق على مثل ما انصقت عليه ، وأن الخلاف إنما يحيى . إن جاء من جانب الأنصار أهل المدينة فالحاجة ماسة إلى هذا التخصيص لدفع الخلاف المنظور ، ومع هذا التخصيص اللازم وصية مكررة يكرّم لأنصار أوصى بها المسلمين بعده ، وهي وصية معناها الواضح في هذا المقام أنه عليه السلام كان يتوهم أن تؤول الخلافة إلى المهاجرين فهم الذين تتجه إليهم الوصية بإكرام مشوى إخوانهم الأنصار ، ولو لا ذلك لما اتجهت الوصية لعريق منهما دون فريق .

ونقول إن السبب عزم مصير الخلافة على الوجه الذي صارت إليه . لا بد لا

نستطيع أن نفهم أنه الظاهر ترك هذه المسألة وهو يتوقع فيها الفشل والفتنة ولم يُبرم فيها حكماً يدفعهما به ما استطاع .

فإذا انحصرت الخلافة يومئذ في قريش فهي صائرة إلى أبي بكر دون غيره ولا حاجة إلى تدبير لن يغير مصير الأمور .

والأ فكيف كانت الخلافة صائرة إلى غير ما صارت إليه وهي محصورة يومئذ في قريش ؟

والى من كانت تصير ؟

إن الذين تولوها بعد أبي بكر من صحابة النبي هم عمر وعثمان وعلي وسارية . فأى هؤلاء كان أظهر حقاً وأقرب طريقاً وأدى من الصديق إلى اتفاق المسلمين عليه ؟

أهو عمر ؟ لقد كان أصغر من أبي بكر بنحو عشر سنين ، ولم تكن له سابقة في الإسلام وهي صحبة النبي ، ولم تكن لفئة الناس له كالفئة لأبي بكر . وليس هو بأقوى عصمة منه بين بطون قريش ، وليس هو بالذي يشغب على أبي بكر ويعصيه لطمع في الخلافة إذا تقدم إليها بل كان هو أول من باعه وحث الناس على بيعته . وقال له :

أنت أفضل مني .

فقال أبو بكر :

وأنت أقوى مني .

فناد عمر يقول :

وإن قوتي لك مع فصحتي .

وكان هذا فصل الخطاب ومرجع الاختيار الذي لا نفويت فيه لفضل ولا قوة ، ولا تصيب فيه لفرصة أبي بكر التي لا فرصة بعدها . أما عمر فله بعد ذلك فرصته حين يأتي أوانها

أفكانت تصير إذن إلى عثمان بن عفان ؟

إن عثمان رضي الله عنه أسلم على يدى أبى بكر، وقد كانت معه عصبية بنى أمية
وهي عصبية قوية، ولكن زعامة تلك العصبية كانت فى يد أبى سفيان يومذاك
ولا طريق له إلى الخلافة وإن طمع فيها. وتزعم عثمان مع هذا أن يركن إلى تلك
العصبية ليؤاحم أبى بكر فى حق لا ينكره ولا ينفسه عليه.

أفكانت تصير إذن إلى هنى بن أبى طالب؟

إنما كانت تصير إليه بحجة بنى هاشم وهى الحجة التى اتقاهم النسي جهده
كما قدمنا، وكان أبو هاشم مع هذا لا يفتقون على اختيار واحد من رؤسائهم
الثلاثة العباس وعلى وأحبيه عقيل، ولم يكن عيسى بعد هذا وذلك قد جاور
الثلاثين إلا بسنوات قلائل، وهى عقبة من العقبات التى لا يسهل تذليلها فى
أمة ترعى حق السن ومكانة الشيوخ إلا بوصية ظاهرة من النسي عليه السلام. ولم
تكن هناك وصية من هذا القبيل كما انفق عليه كل سد وثيق.

أفكانت تصير إذن إلى معاوية بن أبى سفيان.

ما بحسب أد معاوية نفسه قام بخلده، أن يشرح نفسه لخلافة النسي فى تلك
الأوبة. ولو توافرت له النسي وتوافرت له الدرر التى تقربه من ذلك الأمل
لأثرت قريش بأدباية كل بطن من بطونها غير بطن بنى أمية، لأن الخلافة فى
بنى أمية معها دولة بنى أمية، لاستطاعتهم بالخلافة وقوة العصبية أن يفرصو
دولتهم على سائر البطون وسائر القبائل. أما الخلافة فى بنى تميم، رهط أبى
بكر، وهى خلافة قريش كلها ومعهم جميع المسلمين، بعد قيام الدولة ببطن
واحد من البطون الصغيرة واحتياج الحاكم إلى تفادى هذه البطون من حوله
ويقال مثل ذلك فى بنى عدي رهط عمر، وفى سائر البطون القرشية ما عد
هاشماً وأمياً.

فإذا كان انتحاب أبى بكر للخلافة هو رأى قريش الذى لا محيد عنه، وهو
نية النسي التى ظهرت من أعماله وإشاراته، فما الحاجة إلى التدبير بين السيدة
عائشة وأبيها، أو بين الرجل الثلاثة أبى بكر وعمر وأبى عبيدة؟ ومن أين يأتى
تحليل التدبير ولا موجب له من الفروض ولا من الاستاد؟

ربما كان الدليل الذى هو أقطع من كل دليل على نفي التدبير المزعوم أن نُقدِّر أن التدبير لم يحصل قط فماذا كان يحصل بعد امتناعه - أكان يقع فى مسألة الخلافة شيء غير الذى وقع ؟ وما هو ؟ وما حيلة التدبير فى منعه ؟

فإن كان الجواب أن التدبير وترك التدبير يستويان ، وأن الحاجة إليه لا تحصر على بال عاقل ، فعلى ذلك على " عن الأدلة الأخرى التى تنقضه وتُلقي به فى مراجع الظنون والأوهام .

نظر النبى إلى ذلك كله بالصورة الشاقفة التى تكشف له ما لا يكشف لغيره ، فسكت بالقدر اللازم ، وأشار بالقدر اللازم ، وعلم أنه قد أشار بما فيه الكفاية ، وأما ما زاد على ذلك فهو زيادة على الكفاية .

وما تشك لحظة فى أنه ~~لم~~ قد أحاط بكل ما يحاط به فى هذه المسألة خلال مرضه وقبل مرضه ، وقد اطمأن إلى كل ما يوجب الاطمئنان فى تقديره ، وأنه لو رأى حاجة إلى المزيد من التصريح بالقول القاطع لصرح وقطع بالقول ، لأن لا نستطيع أن نفهم أنه ~~لم~~ يترك الإسلام والمسلمين عريضة للفشل والفشة ثم لا يدع ذلك فى وسعه . فكتماؤه بما صنع هو الدليل على عمه ، سيحدث واستعناؤه عن المزيد من التدبير .

وقد نظر ~~نظر~~ ولا ريب - إلى كل ما يستحق النظر فى مسألة الخلافة وهو يرشح لها أباه بكر ذلك انترشيح لأبوى الذى يؤس بالرأى ولا يُقحمه على القلوب

نظر إلى حق أبى بكر كما نظر إلى مصلحة المسلمين

حق أبى بكر فى قيامه مقام النبى ظاهر ما فيه خلاف ، ولا موجب بحطه إلى غيره على وجه من الوجوه

ومصلحة المسلمين فى ولايته راجحة فى كل حساب ، لأن المسلمين كانوا يومئذ أحوج إلى عهد يكون امتداداً لعهد النبى حتى يحين وقت التوسع والتصرف ، وأحوج إلى ألفة غير محشية ولا مفسوسة تعوضهم من طاعتهم للنبى بتعاونهم على النصيحة والمودة وكل أولئك مبسور لأبى بكر قبل تيسره لغيره

من أجله الصحابة الأقربين ، فهو في حرص شديد على الاقتداء بالسبي حرفاً
حرفاً رخصة خطوة لن يكون عهد إلا امتداداً للعهد السوي حتى تتغير الأحوال
فتأذن بالتغيير ، وهو في نفسه واجتماع القلوب إليه حير من يحلف الطاعة بالوعدة
وعالج العرفه والانقسام بالرفق والتؤدة . فإن جد ما يدعى إلى التصرف أو يدعو
إلى الشدة فهناك الأعوان المخلصون له وللدن ، وهناك المشيرون الذين يقبلون
الرأى على جميع الأحوال : فضله مع قوتهم وقوته مع فصلهم ، نعم العون ونعم
الكفيل واجتماع أسباب الحول والخيلة ، كما ألمح إلى ذلك عمر بن الخطاب
ثم حانت الساعة التى تهب لها مشيئة القدر وتهب لها مشيئة الناس
على ذلك النحر المستقيم .

فتم فى يوم واحد كل ما ينبغي أن يتم فى يوم
ولاح للوهلة الأولى أن الخطر عظيم وأنه موشك أن يعصف بكل شيء وأن
يحرج على كل سواء .

إذ اجتمع الأنصار يتحدثون بحقهم فى الخلافة دون المهاجرين ، وهمت
الفتنة أن تنطلق بغير عقال فى طريق لا تعرف عقباء ، ولكنها فتنة مكبوحة قدر
لها ألا تقوى على الإطلاق من باب السقيفة التى نجحت فيها

فكان سعد بن عبادة زعيم القوم مريضاً لا تؤاتيه فى ذلك اليوم حركة النفس
التي لا غنى عنها فى ذلك المقام ، لأنها تعدى بالهبة والثقة من يستمعون
إليه . محملوه من بيته إلى السقيفة وهو لا يملك زمام عزمه ولا يقدر على
الكلام ، فجعل يخاطبهم بلسان القريين منه وجعلوا يصغون إليه إصغاءهم إلى
مريض يشعرون بضعفه لا إلى زعيم يشعرون بقوته وبأسه .

وكان القوم فريقين متناحسين منذ زمن قديم ، وهم الخزرج والأوس وبينهما
ملاحاة دالمة تهون معها كل ملاحاة بين الأنصار والمهاجرين

وكانت نقطة عمر وأصحابه أسرع من فتنة القوم . فبلغوا السقيفة من إنانها
وعالجوا الأمر حتى علاجه ، وقال كل منهم كلمة كانت أهد من سهم وأقهر من
جيش . قال أبو بكر :

« إن هذا الأمر إن تولته الأوس نفسته عليهم الخرج وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس ، ولا تدين العرب لغير هذا الحى من قريش . . نحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتنون بشورة ولا تُقصى دوىكم الأمور »

وقال عمر :

« إن العرب لا جمع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم »

وقال أبو عبيدة .

« يا معشر الأنصار ! كنتم أول من نصر وأزر فلا تكونوا أول من بذل وغير » .

ونادى أبو بكر القوم . هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا .

فقال عمر وقال أبو عبيدة مثل مقالته :

« لا والله ! لا نتولى هذا الأمر عليك . فإنك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إدهما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا الذى ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك أسط يدك تبائعك .

فبايعه زعيم من الأوس ، بشير بن سعد ، وهو يقول :

« كرهت أن أنازع قومًا حقًا جعله الله لهم »

وقال النقيب أسيد بن حنيفة :

« والله لئن وليتها الخرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم معهم نصيبًا أبدًا فقوموا بايعوا . . . » .

وبايع عمر وأبو عبيدة مكانًا بايع المهاجرون معهما ، ولم يبق للخزرج الحاضرين عزمٌ خلاف ، فتزاحموا على البيعة حتى أوشكوا أن يظنوا زعيمهم المريض ، وماتت الفتنة فى مهدها لأنها ولدت بعلة الموت

ولدت بعلة الموت فماتت وما اصطدمت بأكثر من ثلاثة رجال ، لم يستعملوا لها بأكثر من استعداد الساعة . بل لعلمهم أفلحوا فى القضاء عليها لأنهم كانوا

أولئك الثلاثة بعينهم ولم يكونوا جمعًا حشدًا من المهاجرين المناظرين فلاحوا
لنقوم هداة ينصحون وهم يلوحوا لهم غزاة يقتحمون ، وكان ذلك أدهى أن
يستمعوا إليهم كما يستمعون إلى الضيف الباصح دون أن تثار فيهم نخوة
الغاضب لئيماره ، المطروق عليه في عقر داره .

ولو أن سعد بن عبادة كان صحيحًا غير مريض ، وكان الأنصار حريًا واحدًا
خير مقسم ، وكان المهاجرون الثلاثة متخلفين عن الموعد الحاسم ، أو كانوا غير
أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ، أو كانوا جمعًا كثيرًا يحفز العداء والمقاومة ، لجاز أن
يتعير مجرى الأمور وأن يكون للتاريخ الإسلامى شأن غير شأنه الذى عرفناه .

ولكننا نخطئ كثيرًا إذا سينا فضل الأنصار أنفسهم فيما صارت إليه الأمور ،
فقد كانت لهم فيه مشيئة مستورة إن لم نقل مشيئة ظاهرة .

كانوا على الأرجح يقضون حق المجاملة لسعد بن عبادة ولا يسوون
الريادة أو يجدون فى الكفاح لا تنزع الخلافه . كانوا مسلمين قبل كل شيء
ولم يكونوا طلاب مُلك قبل كل شيء ، وكانوا يحسون ما أحسه المسلمون
جميعًا إذ قالوا : إن النبى قد ائتمن أب بكر على الدين بتقديمه للمصلاة فكيف
لا يؤتمن على الدنيا ؟ .

وكانوا يعلمون أن المهاجرين مقدّمون فى القرآن على الأنصار ﴿ والسَّابِقُونَ
الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ . فلم يكن
إيمانهم بحقهم فى الخلافه إيمان من يغضب لقواتها ويستमित فى طلبها ، ولم
يكن حرصهم على السلطان أشد من حرصهم على الدين ومصلحة المسلمين ،
ولم يكن أملهم فيها إذ نارعتهم قريش عليها بالأمل الذى يطعن على كل
تفكير ، فما هو إلا أن أشار بعضهم إلى منازعة المهاجرين حتى قالوا : « ما أمير
ومهم أمير » قبل أن تستعيص بينهم حجج المهاجرين ثم تمت البيعة فلم
يعودوا إلى تمحل الأسباب للخروج على صاحب الأمر كما يفعل كل حريص
على السلطان لجووج فيه .

بهم ولا ريب أصحاب مشيئة فيما صارت إليه الأمور ، على هذا النحو من المشيئة التي قد يحفلها صاحبها وهي حاضرة

وهم ولا ريب إخوان يطالبون حقاً في الإرث المشروع إذ ثبت لهم حق فيه ، وليسوا بأعداء يحظرون إلى أسلاب العدو ويستحقونها بالعلة عليها ، كائنة ما كانت ذريعتهم إليها من حق أو باطل ،

على أنهم لو كانوا غير ذلك وكان نزاعهم إلى السلطان نزاعاً طاعياً لا يبالون فيه بالحقوق والحرمان لبطل في هذا النزاع كل تدبير سابق لأبي بكر وصاحبه ، ولكن مآل الفتنة إلى حكم الواقع الذي لا تغنى فيه الخطط السابقة ولا العطات البالغة . إذ قصري لتدبير من أبي بكر وصاحبه أن يجمعوا حولهم كلمة قريش ورؤسائها وبطونها هأما أن يحضروا بالتدبير من لا يحضرنه لغير السيف ، وأن يدفعوا بالاتفاق بينهم ما ليس له دفع ، فذلك هو الخيال بعينه ، أو ذلك هو الاتفاق على أساس خارجين من نطاق الاتفاق .

وصفة القول أن خلافة أبي بكر كانت نتيجة لكل مقدمة سبقتها من فعل الحوادث ، أو من فعل أحد عامد أو غير عامد

وغير هذه الخلافة ما كان ليكون ، إلا الفتنة التي لا يجدى فيها اختيار هذا ولا اختيار ذاك ، ولا يغنى فيها تدبير ولا تقدير .

ولست أحب أن يفهم من هذا أن أحداً من كبار الصحابة كان يعادى الخلافة ولا يسره أن يختار لهذا المقام العظيم ، وأن يراء الناس أهلاً للاصطلاح بعينه الحسين . فخلافة النبي شرف لا يأبه أحد بحبه وبعظمه ويتتبع خطاه ، وأقل من هذا المقام الأسى كان حقيقةً عند الصحابة أن يستشروه به ، ولا يكتموا طموحهم إليه

جاء أهل عجران إلى النبي ﷺ فقالوا :

« ابعث لنا رجلاً أميناً »

فقال : « لا نعش إليكم أمياً حق أمير » فاستشرف لها الناس . فبعث أنا عبيدة بن الجراح

وروي أبو بكر هذه القصة حيث قال -

« قدم إلينا وفد فحران فقالوا : يا محمد انعت لنا من يأخذ لك الحق ويعطيناه

فقال

والذي بعثني بالحق لأرسلن معكم العوى الأمير » فما تعرضت للإمارة غيرها فرفعت رأسى لأرىه نفسى ، فقال قم يا أبا عبيدة .

وقد ساء أبا بكر بعد مبعثه الأولى أن ينقبض أناس عنه فظهر منه الاستياء حيث قال :

« أيها الناس ! ألسنت أحق الناس بها ؟ ألسنت أول من أسلم ؟ »

وعبر ذلك أيضاً - لم يكن ليعقله العقل ولا بالذى يجمل بالكريم ، فكل رجل كريم يسوءه أن ينقبض أناس عنه وهو جدير منهم بغير لانقاص

ولكن العبطة بالخلافة شيء ، والاحتبال لها باخيلة والسميسة شيء آخر ، وهذا الذى تُكره لأننا لم نجد دليلاً واحداً عليه ، ووجدنا أدلة كثيرة على مقيصه

كل ذلك دبر أبو بكر وأصحابه كل ما يُحمد تدبيره بعد قيامه بالخلافة لتوطيد أركانها وحماية الإسلام غوائل عصيائها والتعرد عليها ، وجهدهم أن يعرفوا كل اجتماع يحشون مَنفَعَتَهُ على وحدة المسلمين فاقترحوا على العباس بن عبدالمطلب أن يجعلوا له نصيباً يكون له ولعقبه من بعده ليمسحوا الاتفاق بينه وبين على ابن أبيه ، إن سعى إليهما من يسعى إلى التاليب والمخريب ، كما هم أبو سفيان أن يفعل باسم الطون القويه في قریش بنى هاشم وبني أمية ،

وصنع أبو بكر وأصحابه نظائر ذلك في سبيل الوحدة العربية والجماعة الإسلامية ، ولكن الذي صنعوه هو التدبير الواجب الذي لا يضير ، وقد يكون في تركه صير كبير .

لقد كان أبو بكر الخليفة الأول لأنه كان الصديق الأول ، ولأن شروط الخلافة التي اجتمعت له لم تجتمع لأحد غيره ، وليس له من منازع فيها وبين أهل عصره ، ولأن المزايا التي قد يرجحها بها أئداده وقرنائه لا تصيح على الإسلام بولايتهم عليهم ومعونتهم إليه .

فكان اختياره أصح اختيار عُرف في تاريخ الولاية ، وكانت التوفيقات فيها خفية من التدبير والتمهيد .

فإن لجّ بعض المكابرين مع هذا في دعوى التدبير فالنعم به تدبيراً ينقطع به الخلاف ، ويتم به أصح استخلاف

صفاته

كان أبو بكر في جملة ما وصفوه به أبيض نخالطه صفرة ، وسيماً ، غزير شعر الرأس ، خفيف العارضين ، ناتيئ الجبهة ، غائر العينين معروق الوجه ، نحيفاً مسترحى إزاره عن حرقته (١) حمش الساقين (٢) ، محوص الفخذين خفيف اللحم في سائر جسمه

وكان أجناً أى منحني القامة - وقيل في وصف آخر . إنه حسن القامة لا يلاحظ عليه انحناء ، ولعله كان كذلك أيام الشباب ، ولم يرد في أخباره وصف قاطع عن الطول والقصر ، ولكنه على ما يؤخذ من بعض تلك الأخبار كان أميل إلى القصر ، ولا سيما أخبار الهجرة مع النبي ﷺ

فقد جاء في خبر الهجرة أن النبي ﷺ « كان على بعير ، وأبو بكر على بعير ، وعامر بن فهيرة على بعير ، فكان رسول الله ﷺ يشغل على البعير فيتحول عنه إلى بعير أبي بكر ، ويتحول أبو بكر إلى بعير عامر ويتحول عامر إلى بعير رسول الله ﷺ ... » .

فكان هو أخف من عامر بن فهيرة

وكان عامر بن فهيرة أخف من رسول الله ﷺ .

وكان رسول الله ﷺ كعب علمنا من وصفه رتبة في الرجال فوق الفصير ودون الطويل ، ولم يكن بين الامتلاء ، بل معتدلاً لا إلى السمن ولا إلى النحافة ، ولو كان أبو بكر ﷺ أطول من الربعة لما كان أخف كثيراً من رسول الله ، وأخف كذلك من عامر بن فهيرة ، بحيث يظهر الفرق بينه وبينهما في حركة البعير الذي يتعاقبون ركوبه .

أما صفاته الخلفية فقد اتفقت فيها أقوال واصفوه ، ودلائل أعماله في

(١) لحقو : موضع شد الإزار وهو الخفاصة

(٢) حقل الساقين مخلص من الاسترخاء

الجاهلية والإسلام ، فكان أليفاً ودوداً حسن المعاشرة ، وكان مطبوعاً على أقصص الصفت التي تتألف له الناس فيألفونه ، ومنها التواضع وليس الخائب فلم يتعد على أحد قط في جاهليته ولا في إسلامه ، وكان في خللاته أشهر تواضعاً منه قبل ولايته الخلافة فإذا مدحه ماذح قال اللهم أنت أعلم مني نفسي ، وإذا سقط منه خطم ناقته وهو راكب نزل منها ليأخذه ولم يأمر أحداً بمأولته إياه وبلغ من بعضه الخيلاء أنه كان ينفضها حتى حيث يفتقرها الناس من ربوات الحال . قدح يوماً على السيدة عائشة رضي الله عنها وهي تمشي وتنظر إلى دبل ثيابها فقد . يا عائشة ! أما تعلمين أن الله لا ينظر إليك الآن ؟ قال : ولم داك ؟ قال : أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزيه الدنيا مفتته ربه عروجل حتى يعارق تلك الرينة ؟ فلما بزعت تلك الزينة التي أعجبت بها فتصدقت بها قال : عسى قلبك يكفر عنك .

ولم يكن تألفه الناس مخض مجاملة باللسان ، يستسهله معظم المشهورين بالتودد والمجاملة ، ولكنها كانت ألفة النجدة والكرم والسخاء ، فكان كما قال ابن الدغنة لقريش ، وقد هم أبو بكر أن يهجر بلده : « أتحرّجون رجلاً يكسب المذموم ويصل الرحم ويحمل الكلّ ويقري الصيف ويمين على موائد الحق ؟ »

فهو ودود كريم لا يصن بماله وجاهه في سبيل الكرم والسخاء

ومع هذه المودة وهذه الألفة كانت فيه حدة يعالها ولا يستعصى عليه أن يكبح جماحها . ووصف بها نفسه ووصفه بها أقرب الناس إليه وأصدقهم في وصفه . فقال في خطبة من أوائل خطبه بعد مبايعته : « اعلموا أن لي شيطاناً يعتري إذا رأتموني غصبت فاجتنبوني . »

وقال عمر بن الخطاب . « وكنت أداري منه بعض الحد أي الحدة - » وذلك حين أعدّ كلاماً يقوله في سقيفة بني ساعدة ، مخالفة أن يحتد أبو بكر في ذلك المقام .

وسئل عنه بن عباس فقال : « كان خيراً كله على حدة كانت فيه »

إلا أنها كانت حدة تنم على سرعة التأثر فيه ، فإذا لم تكن غضباً بغالبه

ويكسحه فهو سريع التأثير إلى الرحمة والرفق في جملة أحواله ، يميل إلى الحزن والأسى ويعطف على الحزين والأسوان ، أو كان كما وصفته عائشة رضي الله عنها : « عريير الدمة وقيد الجوانح »^(١) شجي التشيع * « أصيفاً متى يقم مقامك » تحاطب رسول الله - لا يسمع الناس » .

وكان في جاهليته وإسلامه وفوراً جميل التمتت بعار على مروءته ويتحجب ما يريب . فلم يشرب الخمر قط لأنها مُحلّة بوقار مثبه ، وسئل لم كان يتجنبها في الجاهلية . فقال . « كنت أصون عرصي وأحفظ مروءتي ، فإن من شرب الخمر كان مُصَيِّعاً في عقله ومروءته » ، ومن مروءته أنه كان يتقى كل ما يورده موارد الشهوات . دعاه رجل في الجاهلية أن يستصحبه لحاجة يُعينه عليها ، فراه يمر في طريق غير التي يمر منها فسأله أين تذهب ؟ هذه الطريق قال الرجل إن فيها أناساً نستحي منهم أن نمر عليهم قال عليه السلام تدعوني إلى طريق نستحي منها ؟ ما أنا بالذي أصاحبك .

وكان لمروءته يتحاشى السقط من الكلام ، فلا يتكلم إلا أن يدعو داع إلى قولة خير فيقولها إذن ويصدق في مقالته ومن وصياه لبعض عماله « إذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام يُنسى بعينه بعضاً »

وقد اشتهر بالصدق في الجاهلية والإسلام ، فكان « صامس » فريش المقبول الصمان . لا يعد أحداً إلا وفي وصدق الدائن والمدين ووكلت إليه الديات والمغارم فلم يكن يحمل شيئاً منها إلا أطمأن إليه الناس ، فإن احتملها أحد غيره خذلوه ولم يصدقوه .

وما امتحن صدقه شيء إلا كان صدقه أثبت وأقوى فخطب رسول الله بنته عائشة حين ذكرتها له خولة بنت حكيم وكان المطعم بن عدي قد خطبها قبل ذلك لآبيه ، فقال أبو بكر لزوجه أم رومان « إن المطعم بن عدي قد كان ذكرها على ابنه والله ما أخلف أبو بكر وعداً قط . . » ثم أتى مطعم وعنده امرأته ،

(١) لويد الجوانح ، المحزون القلب

فسأله ما تقول في أمر هذه الجارية ؟ فأقبل الرجل على امرأته ليسألها . ما تقولين ؟ فأقبلت هي على أبي بكر تقول : لعننا إن أنكحنا هذا الصبي إليك نَصَبته وتدخله في دينك الذي أئت عليه . فلم يجبها أبو بكر وسأل المظعم بن عدي : ما تقول أنت ؟ فكان جوابه . إنها تقول ما تسمع .

فتحلل أبو بكر عند ذلك من وعده ، ولم يتحلل منه قبل ذلك على ما في نسب الرسول من شرف ، وما في قلبه من إعزاز له يفوق كل عزاز .

وكانت شجاعته كفاء صدقه ووفائه بوعده . سواء منها شجاعة الرأي وشجاعة القتال . فلما أسلم لم يبال أن يعلن إسلامه وأن يجهر بصلاته ودعائه ، يصيبه في ذلك ما يصيب ، ولا وجب القتال كان هو أقرب المقاتلين إلى رسول الله في كل غزوة وكل مأزق من مآرق الحلال ، وانهرم كثير من الشجعان في بعض الملاحم الحازية ، ولم تذكر له قط هزيمة في ساعة من ساعات الشدة ، ولا ثبت نفر قط حيث يصعب الثبات إلا كان هو بين أول الثابتين . ولم تكن وقعة قط أشد على المسلمين من وقعتي أحد وحنين ، ولَّى هيهما مَن ولَّى واستشهد من استشهد وتردد في صفوف العسكرين أن الرسول ﷺ كان بين المستشهدين . فذعر الضعيف وقال القوى . ما تصنعون بالحياة بعده ؟ فموتوا على ما مات عليه رسول الله

وفي وقعة أحد أشد هاتين الوقعتين - كان أبو بكر في طليعة الثابتين ، ونظر إلى حلقة من درع قد نشبت في جبين صدقه وصفبه ونسبه مشغنه أن يصاب هذا المصاب ، وانكب عليها ليرعها ، لولا أن أقسم عليه أبو عبيدة ليسبقه هو إلى نزعها ، فجذبها بثنيته جذباً رقيقاً حتى برعها وسقطت ثيابه .



وعلى هذا الحظ الافر من المزايا الخلقية كان له قسط محمود من المزايا العقلية التي يمتاز بها ذور الأقدار من أهل زمانه ، فقبل فيه وفي صاحبه أبي عبيدة : إنيهما « ذاهيتا قريش » . وأثر عنه أنه كان أسرع الناس إلى الفطنة لما يوحى به النبي ﷺ بالتلميح دون التصريح . وما جاء في الحديث الشريف عن علمه وقطنته أنه ﷺ قال :

« كَأَنِّي أُعْطِيتُ عَسًا ^(١) مَمْلُوءًا لَبَنًا فَشَرِبْتُ مِنْهُ حَتَّى امْتَلَأْتُ ، فَرَأَيْتُهَا تَجْرِي فِي صُرُوفِي بَيْنَ الْجِلْدِ وَاللَّحْمِ ، فَفَضَّلْتُ مِنْهَا فَصْلَةً فَأَعْطَيْتُهَا أَبَا بَكْرٍ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! هَذَا عِلْمٌ أَعْطَاكَهُ اللَّهُ ، حَتَّى إِذَا امْتَلَأْتُ فَضَلْتُ فَصْلَةً فَأَعْطَيْتُهَا أَبَا بَكْرٍ ، قَالَ ﷺ : قَدْ أَصَبْتُمْ » .

وكان لأبي بكر حفظ وافر من الملكة الروحية إلى جانب ما عنده من هذه الملكة الذهبية ، وتلك الملكة الخلقية ، ومعنى بالملكة الروحية ما نسميه اليوم ببقطة الصمير

ومناط الصمير أن يرفع الإنسان حتى غيره ، وأن يُحَسِّنَ وَلَا يَسِيءَ ، وهي حصيلة كانت ملحوظة في أبي بكر من أيام الجاهلية قبل أن يدين بالدين الذي يأمر بالخير ويهوى عن الشر ، ويدعو إلى اتباع الحق واحتساب الباطل . فلما جاء هذا الدين بنى منه على أساس قديم ، وبلعت به نفسه قصارى ما تبلعه نفس طيبة من رعاية حقوق الناس ومن كلف بالخيرات وسحط على الشرور

قال ربيعة الأسلمي : « جرى بيني وبين أبي بكر كلام فقال لي كلمة كرهتها وندم ، فقال : يا ربيعة ! ردّ عليّ مثلها حتى يكون قصاصاً قلت : لا أفعل ! قال : لتقولن أو لأستعدين عليك رسول الله ﷺ . فقلت : ما أنا بفاعل فانطلق أبو بكر وجاء أناس من أسلم فقالوا لي : رحم الله أبا بكر ، في أي شيء يستعدي عليك وهو الذي قال لك ما قال ؟ فقلت : أتدرون من هذا أبو بكر الصديق ؟ هذا ثاني اثنين ، وهذا دو شية في الإسلام . إياكم لا يلتفت فإراكم تنصرونني عليه فيغضب ، فيأتي رسول الله ﷺ فيغضب لغضبه ، فيغضب الله لعضبتهما فيهلك ربيعة . وانطلق أبو بكر وتبعته وحدي حتى أتى رسول الله ﷺ . فحدثه الحديث كما كان . فرفع إليّ رأسه فقال : يا ربيعة ! مالك والصديق ؟ فقلت : يا رسول الله ! كن كذا وكذا ، فقال لي كلمة كرهتها . فقال لي : قل كما قلت حتى يكون قصاصاً فأبيت . فقال رسول الله ﷺ : أجل لا ترد عليه . ولكن قل . قد غفر الله لك يا أبا بكر . . . »

(١) العس . الإساءة للكبير أو القبح الكبير

وهو يكره أن يسيء لأنه يكره أن يُساء ، ويعلم ما توقعه الإساءة في النفس من ألم يعسها على الحلم والأناة حتى في المحصر الذي تُراعى فيه على عاية الحلم وضاية الأناة .

بسم رسول الله جالس ومعه أصحابه وقع رجل يأبى بكر فأداه ، فصمت عنه . ثم أداه الثانية فصمت عنه . ثم أداه الثالثة فانتصر منه . فقام رسول الله حين انتصر أبو بكر . فقال أوجذب علي يا رسول الله ؟ فقال رسول الله . نزل منك من السماء يكذب به قال ، فلما انتصرت وفتح الشيطان .

ولا شك أنه درس من الدروس النبوية يداوى به نوازع الخدة في صاحبه الأمين ، لأنه كان يهيش لأمر عظيم - أمر ينبغي لمن تولاه أن تؤلمه إساءته إلى الناس فوق ألمه لإساءة الناس إليه .

ومن بقطة القصير فيه أنه لم يظن أن تستقر في جوفه لقمة يشك في مأثامه ، فكان له مملوك يعمل عليه ، فأثناء ليلة بطعام فتناول منه لقمة . قال المملوك : مالك كنت تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة ؟ قال حملي على ذلك الجوع . . من أين جئت بهذا ؟ فأنبأه المملوك أنه مرّ بقوم كان يرقى بهم في الجاهلية فوعده ، فلما أن كان ذلك اليوم مرّ بهم فإذا عرس لهم فأعطوه ذلك الطعام !

قال الصديق : إن كدث لشهلكتي

وأدخل يده في حلقه فجعل يتفأ - وجعلت اللقمة لا تخرج - فقيل له إن هذه لا تخرج إلا بالماء . . .

فلما بطست من ماء فجعل يشرب ويتقبأ حتى رمى بها .

فيل له : يرحمك الله ! كل هذا من أجل لقمة ؟ فقال : لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها .

وما نحسب أن يوماً مرّ به دون أن يطيح فيه داعي الإحسان ، وسليقه البر والمودة سئل عنها أو لم يسأل .

فكان من عادة السيّد أن يسأل أصحابه حيناً بعد حين عما ابتدوه من

الخيرات فلا يكتمونه شيئاً لأنه يسأل ويريد أن يجاب ، لئلا يتبع جوابهم عظة من العظات ، أو يعقبه بحديث يؤثره عنه .

صلى النبي ذات صباح فلما قضى صلاته سأل : أيكم أصبح اليوم صائماً ؟ قال عمر - أما أنا يا رسول الله فقد بت لا أحدث نفسي بالصوم ، وأصبحت مفطراً .

وقال أبو بكر : أما يا رسول الله ، بت الليلة وأنا أحدث نفسي بالصوم ، فأصبحت صائماً

ثم سأل النبي : أيكم عاد اليوم مريضاً ؟

قال عمر : إنما صليتنا الساعة ولم نبرح ، فكيف تعود المريض ؟ وقال أبو بكر : أنا يا رسول الله ، أخبروني أن أحى عند الرحمن بن حوف مريض وجع ، فجعلت طريقى عليه ، فسألت عنه ، ثم أتيت المسجد .

ثم سأل النبي : أيكم تصدق اليوم بصدقة ؟

قال عمر : يا رسول الله ما برحنا معك منذ صلينا فكيف نتصدق ؟ وقال أبو بكر : أنا يا رسول الله ، دخلت المسجد ، فإذا سائل يسأل وابن عبد الرحمن بن أبي بكر معه كسرة خبز ، فأخذتها فأعطيتهما السائل فقال النبي : فأشرب بالجنة . أشرب بالجنة !

لا جرم يقون عمر - ما سبقت أبا بكر إلى خير قط إلا سبقني إليه ولا جرم يعول عليّ : هو السابق ، والذي نفسي بيده ما استبقنا إلى خير قط إلا سبقنا إليه أبو بكر .



لقد وصف لنا الصديق بأوصاف نستطيع أن نعيدها اليوم بما ألفناه من أساليب العصر فراها على وفاق لحقائق تلك الأوصاف ودلالاتها ، وذلك أبين البينات عن صدق ما وصفوه به في الجاهلية أو الإسلام

فمن جملة الملامح والسمات التي وُصف بها يتبين لنا أنه كان من أصحاب المراج العصبى الناشئين في وراثة كريمة ، فهو عصى كريم النزعات والطوايا .

ولا يندر في أصحاب هذا المزاج أن يتميزوا بحدة الذكاء وسرعة التأثر والطموح إلى المثل العليا والحماسة لما يعتقدونه ، والتعلق بما يؤمنون به ويصدقونه ، والتقدم في العقائد والذخول

بل هذا هو الغالب فيهم ، كما يشاهد اليوم في كل دعوة دينية أو اجتماعية أو سياسية ، لن تحلّ من إدمس في مزاج أبي بكر وخلائقه الجسدية والنفسية ، ينصرون بها ويتشبثون بها ويؤمنون بدعائهم ولا ينكصون عن سبيلهم أو سبيلها .

وإذا كان الرجل من بيت من بيوت الشرف والوجاهة نشأه - إذ يكون على هذا المزاج - أن يعتصم بالوقار ودواعيه ، وأن يستزيد من خلائق الصدق والمروءة التي رُكبت فيه .

ولم يكن أبو بكر على علما صاحب « الشخصية الباطنة » التي تروع الناظر إليها لأول وهلة .

ولم تكن سيادة بيته سيادة جبارين يملكون الناس بالأس والسطوة .

فسبيله إذن أن يعتصم بصدقه ومروءته ليحفظ بهما كرامة الشرف الذي ينمى إليه ، وأن يستزيد من ذلك الصدق وتلك المروءة بما يزيدهما في التمكين ويملى لهما في الثبات والرسوخ ، وأن يتحجب فلتات الطمع واللسان ويتره عن كل مخيل بالوقار مَرَّر بالصبيان ، لأن وقاره وصيانته هما الحجاز القائم بينه وبين كل مهانة واستخفاف ، ولو كان باطش ، المظهر أو باطش السيادة لقد يستعنى عنهما بعض الاستغناء في بعض الأحيان أما وهو بعيد من البطش في مظهره وسيادته فليس من شأنه أن يغفل عن سمات الوقار والمروءة طرفة عين .

وقد عرف الصديق بالخلقة وهي أيضا من خلائق هذا المزاج التي يُعالجها من يحرسون على وقارهم ومروءتهم أن يستهدفوا لجرائر الخلقة أو يندفعوا في غير عمل حميد .

إلا أن يُسمى الرجل قيما هو من أخص لخصائص التي يقوم عليها مزاجه

وتستقيم عليها عاداته وسماته فعدئذ تحسر المعالمة وتبرز الحدة من مكمنها ،
وهي على حق إذن في برورها .

لهذا نرجع إلى حوادث أبي بكر في الحدة والصرامة على خلاف عاداته من
الرحمة والألفة ، فهذا هو كنهها ، ليس الصدق والتصديق أو بحس الإيمان ، أو
يجرى مجرى الاستهزاء الذي يحس الوقار .

بلغ أقصى ما بلغ من غضب وحدة في عقاب لفجأة من إيمان من
عند ياليل وبقي طوال حياته يدم على حدة من ذلك العقاب .

وماذا صنع المجاعة حتى هاج منه تلك الحدة التي يفانها أقوى مغالبة ؟
أثاره في مكمن الثورة فيه

كذبه الأمانة ، وحده وخدع المسلمين ، وقتل من قتل من الأمنين ، وقبما
غضب إنسان كما يغضب الصادق لصدقه المخدوع ، ولا سيما الخديعة التي فيها
خدر وسفك دماء .

جاءه يطلب سلاحاً ليحارب به المرتدين ، فأخذ السلاح وحارب به المسلمين
الأمنين ، وعاث في الطريق ينهب ويسلب ويهدر الدماء ، فلما وقع في الأسر لم
يجزئه عنده إلا أن يقدف به في النار .

وجاء له رجل من أحبار اليهود اسمه فنحاص في الآية : ﴿ من ذا الذي
يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة . . ﴾ ، فقال فنحاص مستهزئاً
بالله والنبي : « لو كان عباً غنياً ما استقرضتنا أموالك كما يرغم صاحبكم
ينهاكم عن الربا ويعطينا » .

هذا هو الاستهزاء .

وهذا هو المساس بالإيمان .

وكلاهما لا يطيقه الرجل للؤمن الوقور وتغلبه فيه الحدة إن هو عليها في غير
ذلك من الأمور

ولقد عاش أبو بكر ما عاش أليفاً مؤلفاً لقومه ، محباً محبوباً فيمن حوله .

رحيمًا بالعرباء فصلًا عن الأقربين وفصلًا عن الأبناء ، إلا أن هذا الرجل الرحيم
الأيّيف يهص إلى مسروره اسمه ودعا عليه بالهلاك حين شهد الحرب مع
المشركين ، ورأى البرّ عاية الرب - أن يهص هو لمباررته ولا بدعه لأحد غيره
من المسلمين .

كان ذلك يوم بدر ، وكان به عبد الرحمن من أشجع الشجعان بين العرب ،
ومن أنفذ الرماة سهمًا في قريش . فتقدم الصفوف يدهو إلى السرا ، وقام أبوه
يجيب دعوته ، لولا أن استغاه السبي ، وهو يقول له : متعنى بنفسك .

ولما أسلم عبد الرحمن قال لأبيه : لقد أهدمت في يوم بدر فضيقتُ عنث
- أي عدلت صك - ولم أقتلك ، فقال أبوه : لكنك لم أهدمت لي لم
أضيف عنك .

وهكذا نعلم أين تندر الحدة وأين تندر الصرامة من حقيقة أبي بكر المسالم
الوديع ، فحيثما روى راء أنه احمد أو احمد فليعلم عن يقين أن في الأمر شيئًا
يمس التصديق والإيمان ، أو يمس المرومة والوقار ، فلا تأتي الحدة أو الشدة يومئذ
في غير موضعها من الطبيعة التي ولد بها وتمر عليها .

رجل له خصائص المراج العصبى في الشئبة السقيقة .

ورجل من عنصر كريم وأرومة طيبة .

ورجل له قدم في السيادة واعتصام بالوقار والمرومة

فكل ما روى عنه فهو موافق لهذه الخصال ، منتظم في هذه الخصائص ،
معقول في هذا التركيب في الخلق والخلق ، وهو من ثم قليل على صحة
الوصف وصحة السيرة على الإجمال .

ولن يكون هذا الرحن على هذا التكوين إلا كما وصفوه وتقلوا عنه : حديد
الطبع ، مستمسك الخلق ، سريع التأثير ، قوى العاطفة ، محيًّا للاعتقاد ، حمسًا
في اعتقاده ، صادقًا في وعده ، كما نستطيع أن نعرف من طبعوا على هذا المزاج
ونراهم بيننا رأى العين ، أو نعرفهم على السماع معرفة اليقين .

ونحن فيما نتوخاه من المصاهاة بين أوصاف السابقين وأوصافنا نحن

المعاصرين ، لما نريد أن نُفضي إلى المقياس الصحيح للتصديق أو التكذيب ،
واعتك الصالح للتشكيك أو التغليب . فإذا كانت الأوصاف التي نقرؤها مطابقة
للأوصاف التي بعقلها والتي نعهدا فذلك هو برهان الصحة في كل مقياس .

والله لمن واجهنا في عصرنا هذا أن نقضي على آفة العصر التي أوشكت أن
تعلب فيه عسى كل آفة ، وهي الطن الشائع بين المنعيقين والمتهجمين أن البراعة
كل البراعة في التكذيب ، وأن الجهالة كل الجهالة في التصديق ، وليست
الجهالة كلها في الحقيقة هنا ، ولا البراعة كلها هي الحقيقة هناك . .

فكثيراً ما تكون الفعلة في التكذيب أعظم من الغفلة في التصديق ، وكثيراً
ما يكون بخس الشيء الثمين أدل على الغش وأصعب للمنعمة من إغلاء الشيء
الحسن ، في تسويم التجارة أو تسويم الصنائع والعقول

نخذ مثلاً لذلك حسبات أبي بكر اليومية التي سأله عنها النبي ﷺ .
فاتفق في يوم سؤاله عنها أنه كان قد أهداها جميعاً على وجه من الوجوه

تسمح على وجه المتفهم المتشكك مسحة التردد وهو يتابع تلك الخبر كأنه عما
لا يجوز ولا يتكرر على هذا المتوال .

فإذا سأله لم التردد وفي وسعك أن تملح بالخبر إلى مقطع السمع ؟ لم
تقف هنا ولا تتابع الطريق إلى منتهاه ؟ إنك لتعلم إذن أن التردد سحف حين
يكون اليقين منك على مد اليدين تناوله إن شئت متى مدتهما إليه .

ماذا يكون إن صدقت الخبر ؟

وماذا يكون إن كذبت ؟

إن صدقنا الخبر فكل ما هنالك أن إمام في الدين مطبوعاً على الكرم
والكرامة قد جرى على سنة سيه وهاديه ، فأصبح صائماً وعاد مريضاً وتصدق
على فقير بكسرة خبز وجدها في يد حفيده

وليس هذا بممتنع ، بل هذا أقرب الأشياء أن يقع ، ولا سيما إذا أضعت إلى
جملة أخبار أبي بكر من إحسانه في الجاهلية والإسلام ، ومن إلفاقه أدال كنه
في سبيل الخير حتى مات وهو فقير

فإن كذب الخبير معاداً يتفاضلنا تكديبه من جهد للعقل واعتساف
للتفكير والتحمين ؟

إن كذبنا وحب أن نعتقد أن أي بكر ^{بكر} قد أحاب النبس ^{الخبير} بغير
الحق ، وأنه يتجاسر صدق المقال في أقمن المواضع بصدق المقال ، فلو جار أن
يكذب على كل نسان لما جاز أن يكذب على الرجل الذي صدقه ، وخاطر
بالماء والبنين والحياة في سبيل تصديقه فمن الذي يقبل هذا الفرض ولا يرى
أن كل فرض حونه أدنى إلى القبول ؟

ومن الذي يعقل ثم يخيل إليه أن العقل يميل به إلى هذا التكذيب ولا يميل
به إلى ذلك التصديق ؟

ويقول : إن هذا جائز لنتمادي مع التصديق إلى أقصى مداه فما الذي يتفاضلنا
جوازه مرة أخرى من جهد واعتساف ؟

يقااضانا أن نقبل شيئاً يقرب من المستحيل

إن الرجل الذي يجترئ على الكذب في هذا المقام لا ينطع على الصدق ،
ولا يحقى كدبه على الناس ، فكيف به وهو مشهور بالصدق في كل ما قال ،
والوفاء بكل ما وعد ؟ وكيف به وهو مشهور بالصدق في شؤون الصمان والمعالم ،
وهي شؤون لا يخفى القديس فيها إلى زمن طويل ؟ وكيف به وهو مشهور
بالصدق قبل أن يدين بالدين الذي يحضه عليه ؟

ايحور أن أكذب الكاديين ، بأمر الدين وبغير أمر الدين ، يشهر بأنه
أصدق الصادقين ؟

تصديق هذا عملة أدعى إلى السخرية من كل عفة ! ولا سيما إذا لحا
الإنسان إليها فراراً من القول بأن إماماً شبيهاً بالأنبياء يصوم أيامه ويعود مرضاه
ويعطى مسكيناً كسرة من الخبز ، وهو قد أعطى الألوف وأنقذ المعسرين وضمّن
من ليس له صمان .

وعلى هذا السحر تتوخى التصحيح والترجيح فيما يأخذ به من أوصاف هؤلاء

العظماء أقرب المقاييس إليها أن يكون تكذيب الوصف أصعب من تصديقه في تقدير العقل والبدية ، وفيما نعيده اليوم من حقائق هذه الأوصاف .

وكذلك أوصاف الصديق كما نقلها القائلون وكما يفهمها اليوم القاهمون ، فإن الأقدمين ذكروا أوصافاً متفرقة لم يقصدوا أن يجمعوها نحن ، ولا قصدوا بعد جمعها أن نعرضها على علم النفس ووقائع الحياة ، كما وصحت لنا بمصاح العلم الحديث .

ولكننا جمعنا تلك الأوصاف وعرضناها على علم النفس فوجدنا بينها ذلك التماسك الذي يقضى بتصديقها ، وينبئ الظنة عن استقامتها في جملتها .

فأبو بكر كما وصفوه رجل لا محالة من أصلاء المزاج العصبى النابئ في سميت الشرف والمروءة ، وقد قالوا إنه كان يجود بماله ، ومثل هذا الرجل خليف أن يجود بماله ، وقالوا : إنه يحتد ويعطف ، ومثل هذا الرجل معهود في حدته وعطفه ، وقالوا : إنه يروض نفسه على السم^(١) والكرم ، ومثل هذا الرجل لا يستغنى عن هذه الرياضة ولا يعجز عنها ، وقالوا : إنه يشتد في اعتقاده ، وليس فيما شهدناه وخبرناه أشد من اعتقاده مثله

قالوا ذلك فلم يقولوا عجباً ولم يقل أحد من يقصه وينصحه وله حجة فيه

فإذا كانت للعقل أمانة فالأمانة في تقرير هذه الأوصاف كما فهمناها بالاستقراء وكما رواها الرواة في مجمل الأباء ، وإذا كانت للعقل مهابة فمهابة العقل أن نعطيه عن فهم حقيقة ماثلة ، لعبير شيء من الأشياء

(١) السم : الاعتدال والوقار

مفتاح شخصيته

كان أبو بكر كما رأينا رجلاً عصبى المزاج دقيق الية ، خفيف اللحم صغير التركيب .

تكوين يعذب على أصحابه أحد أمرين : إن كانوا من كرام المحيرة^(١) فهم مطبوعون على الإعجاب بالبطولة ، والإيمان بالأبطال

وإن كانوا من لئام التحيزة فهم مطبوعون على الحسد والكيد ، وهما ضرب من الإعجاب المعكوس يؤدي إليه انعكاس الطبيعة ، والإحساس بالعظمة في غير معاطفة بينهم وبينها ولا ارتياح إليها .

والحسد هو إعجاب اللئيم عند شعوره بالعظمة ، أو هو التحية التي يؤديها اللئيم إلى العظمة حسداً منه من التواء وارتكاس^(٢)

ولهذا يصح أن يقال : إن أصحاب البنية الدقيقة والمزاج العصبى مطبوعون على الشعور بالعظمة على حال من الأحوال ، وإن كانوا كراماً شعروا بها معتبطين مؤيدين ، وإن كانوا لئاماً شعروا بها محققين مشتطين ، ويندر فيهم جداً من يشد عن هذه أو تلك من الخصال .

ولقد كان أبو بكر رجلاً كريماً أليفاً من أهل الخير والمودة ، فلا جرم كان الإعجاب بالبطولة طبعاً متأصلاً فيه ، مقروناً بكل ما هي الإعجاب من حب وثقة وإيمان ، ولا حرم كان هذا الإعجاب « مفتاحاً لشخصيته » مفسراً لكل ما يلتبس من أعماله ، بميزاً لكل ما يتشابه به وبين غيره من الصفات

فلنا في كتابنا عن « عبقرية عمر » : إن مفتاح الشخصية « هو الأداة الصغيرة التي تفتح لك أبوابها ، وتملأ بنا وراء أسوارها وجدرانها ، وهو كمفتاح البيت من كثير من المشابه والأغراض . سيكون البيت كالحصن المغلق ما لم تكن معك

(١) التحيزة : الطبيعة

(٢) يرتكس - وقع في امر

هذه الأداة الصغيرة التي قد تحملها في أصغر جيب ، فإذا عاجلته بها فلا حصن ولا إغلاق .

وقتا :

« ليس مفتاح البيت وصفاً ولا تمثيلاً لشكله واتساعه ، وكذلك مفتاح الشخصية ليس بوصف لها ولا بتعثيل لخصائصها ومزاياها ، ولكنه أداة تتخذ بك إلى دحائها ، ولا تزيد . »

فشخصية الصديق لها مفتاح قريب المتناول وهو هذا المفتاح ، مفتاح الإعجاب بالبطولة .

وهذا الإعجاب بالبطولة هو الوسم الذي ينسم به كل عمل من أعماله وكل نية من نياته ، وهو السر الذي يراه كامنًا في كل رأي يرتثيه وكل قرار يحسم يستقر عليه .

والإعجاب بالبطولة في التاريخ الإنساني شيء عظيم ؛ ليس بعد البطولة منزلة يشرف بها الإنسان أشرف من منزلة الإعجاب بها والركون إليها . لأن الفضيلتين معًا لازمتان حتمًا إلى جنب في كل أمر جليل تم في تاريخ الإنسان ؛ وكل طور من أطوار التقدم ارتقى إليه .

وليقل أصحاب التحليل العلمي ما يشاءون

وليقل أصحاب القياس المنطقي ما يحسون

هشأوا أو لم يشاءوا ، وأحسوا أو لم يحبوا ، لقد تم بغير التحليل العلمي وبغير القياس المنطقي كثير من العطاء في تاريخ الإنسان ، ولم يتم قط - ولن يتم فيما يرى - أمر عظيم واحد بغير البطولة وبغير الإعجاب بالأبطال

لها برهانها من الواقع كبرهان الأقيسة المنطقية والتجارب العلمية . فالرجل الذي يهض له البرهان التقاسي على الثقة يبطل من الأبطال فيثق به ويعميه على عمده ليس بالرجل الذاهب على غير هدى أو الأخذ بغير دليل كلا

فعمله ونتيجة عمله كلاهما برهان يعنيه عن مصنع التحليل وعن قضايا المنطق ، ويغنى العالم كذلك عنهما إذا نظرنا إلى العمل ثم نظرنا إلى النتيجة ، ونظرنا قبل هذا وبعد هذا إلى طبع الإنسان .

خذ لذلك مثلاً حديث الأعاجيب التي سمعها أبو بكر في أيام الدعوة المحمدية فصدقها لأنه يصدق صاحبها ويركن إليه ،

وهو قد ثبت إلى معمل التحليل فقال له المعمل ، به لم يسمع بأمثال هذه الأعاجيب ، وليس لديه مسبار لها يصلح للتأييد أو التعميد

وهو قد ثبت إلى قضايا المنطق فقالت له إنها لا تعرف هذه الأقيسة ولا هذه المقدمات ولا هذه البراهين .

وهبه فعد في مكانه بعد هذا وذاك ، لأن معمل التحليل لا ينشط به إلى الحركة في هذا الطريق ، ولأن قضايا المنطق لا تزجيه إلى الجهاد في هذا الميدان أفكاسب هو إند ؟ أفعاقل هو إند ؟ أمحق ما انتهى إليه وما انتهت إليه الجزيرة العربية من جراء سكونه وإحجامة ؟

إن جزيرة العربية لا ترح شيئاً بذلك التمهيط المزعوم ، وإن العالم الإنساني لا يريد عقلاً ولا علماً ولا تحليلاً ولا قضايا منطق بذلك الإحجام الذي استقر عليه ، وإن أبا بكر لن يكون خيراً من أبي بكر ، والدنيا لن تكون خيراً من الدنيا ، والتفكير لن يكون خيراً من التفكير ، بل كل من أولئك فاقد وخاسر ومنقوص .

ونصارى ما في الأمر أن رجلاً شك فلم يعمل شيئاً ، ولم يدر أحد بأنه شك ولا بأنه لم يعمل ، ولم يفتقع عقل الإنسان بما كان

أقيفهم فاهم من هذا أننا نقول ، إن العمل على خطأ حير من الشك على صواب ؟

كلا . . ليس هذا ما نقوله ، وليس هذا ما نحن مصطرون إلى قوله بضرورة من الضرورات .

وإنما نقول .

إن الشك إذن هو الخطأ ، وإن برهان حطته بفسادى يقام له وره كما يقام
الورن لتحليل العلمى والقضايا المنطقية ، وإنما الخطأ أن نحوج الطولة إلى الدخول
فى المعمل لتثبت لك قدرها ، وتثبت لك حقها فى الإعجاب . وحقها فى
العمل ، وحقها فى تحويل تاريخ الإنسان ثم تثبت لك قدرتها عليه !

ليس المعمل محل هذا .

محل هذا نفس الإنسان .

وساءت الدنيا إن كانت نفس الإنسان لا تغنيه فى تقويم النفوس ، ولا سيما
أعظم النفوس .

أفلا يروعى البطل إلا خلال الأمايق والأنايب ؟

أفلا تملكى نخوة لإعجاب إلا بوثيقة من إيساغوجى ؟

أفيروقى الطائر المطلق ما علم لم يروقى ، ويساءى لى الروح العظيم ما قول
مكانك حتى أرجع إلى مائده التشرية أو إلى قاروره الكيمياء ؟
ما قال ذلك قائل قط أمام روح عظيم .

والسبب واضح مستقيم .

السبب أن الروح العظيم كان قبل أن تكون مائدة تشرية وقارورة كيمياء ، وأن
الإنسانية ألهمت خيراً ألا تؤجل الإعجاب بكل روح عظيم إلى أن يظهر
المشرعون والمحلون .

ليظهروا « على مهدهم » ولتأخذ العظمة الروحية حقها من الإعجاب قبل
إدنتهم ، فلا ماقضة لمعلم ولا للمطلق فى ذلك

إنما الماقضة أن يعلق دوافع النفوس وبواعث الفطرة على شيء لا تتعلق
به ولا تتوقف عليه ، ولا تخطئ الواقع ثم تحطى الواقع الصالح ولا سند لنا
أوثق من الواقع على كل حال ، ولا شفاعة أكرم من شفاعة الواقع الصالح
فى كل حال

أيقولون إن السديهة قد تخطئ في الإعجاب ؟

قد تخطئ ولا جدال .

ولكن كذلك يخطئ العقل ، وكذلك تخطئ التجربة ، وكذلك تخطئ العلوم
وعرض في حطتها مئات السنين ولم يقر أحد أن قولها للحطأ يفي قولها
للصواب ، ولا نسي أحد أنها إذا أخطأت مرة فلها امتحان من العواقب يأبى على
الخطأ أن يدوم

على أن تقيص القضايا المنطقية أو العلمية شيء وتقيص السمائل النفسية
شيء آخر وري كانت وسائل الصديق أقل من وسائل المحللين والمشرحين في
العصر الحاضر في باب القضايا المنطقية أو العلمية أما في باب السمائل
النفسية فوسائله ليست بأقل من وسائلهم بحال ، وقدرته على أن يحس من
حواله عظمة النفس الإنسانية ليست بأقل من قدرة أحد من المحللين و مشرحين

وهو قد قال هذه نفس عظمة لا شك في عظمتها ، فالخير في متعتها ، إن
لم يكن بد من افتراق الطريق بينها وبين أعدائها

وهو فيما قال قد أصاب .

أصاب مطلقاً وأصاب علماً وأصاب حساً وأصاب بكل مقياس من مقياس
الصواب

هو فيما قال أصوب من يحالفه رأياً ، ولو امتد إلى كل حجة من حجج
التحليل والتشريح

وهاديه فيما اهتدى إليه هو إعجابه بالبطولة .

وهو إعجابه بالبطولة التي تستحق الإعجاب ، لأن الإعجاب طبقات
تفاوت ، كما أن البطولة نفسها طبقات تتفاوت وقد كان هو من طبقات هذا
الإعجاب في أرفع مكان .

لأنه لم يعجب بسطل تروعه منه سطوة العُناة المنجبرين ، ولم يعجب بسطل
تروعه منه مظاهر الزخرف والخلاء ، ولم يعجب بسطل تروعه منه جلبة الصيت

الفارغ والمواكب الجوفاء ، ولم يعجب ببطل يردى بالوفر والثروة أو بالعُصبة
أولى القوة .

لا لم يكن شيء من هذا هو الذى راعه من بطولة محمد ص ، لأن محمداً
ص لم يكن ذا سطوة ، بل كان عرضة للأذى من السلطين عليه ، ولم يكن من
أصحاب الزخرف والخيلاء بل كان أعداؤه هم أصحاب الزخرف والخيلاء ولم
يكن وراءه أحد يتبعه ولا معه مال يصل به من يصل إليه ، بل كان وحيداً بطرده
الأكثرون ، فقيراً يعيه الموسرون . وأولهم أول صديقيه والمقبلين عليه

إنما البطولة التى أعجب بها أبو بكر هي البطولة التى ليس أشرف منها بطولة
تعرفها النفس الإنسانية هي بطولة الحق ، وبطولة الخير ، وبطولة الاستقامة ،
وهي بعد هذا ، وفوق هذا ، بطولة العداة يقبل عليها من أقبل وهو عالم بما
سيلقاه من عنت الأقوياء والجهلاء .

تلك هي بطولة محمد .

وتلك هو إعجاب الصديق . خير لى آدم أن يبقى لهم هذا الإعجاب من أن
يزول ويبقى بعده كل شيء ، وأى شيء !



ولقد أجدى ذلك الخلق الكريم أكبر حدوده لانه تهيأ له بسليقته ونشأته
وتوشج تركيمه عليه .

فظهر منه إيمان القلب ، وروية الفكر ، وفي سياسته العامة ، وفي سياسته
لخاصة ، وما تشتمل عليه من أدب سلوك وعلاقة بالناس

أحاط به أناس من المشركين ينهكمون به ساحرين عابثين . هل لك إلى
صاحبك ؟ إنه يزعم أنه أسرى به اللينة إلى بيت المقدس !

وكان أناس قد ارتدوا بعد إسلام لما سمعوا بحديث الإسراء ولم يسيئون فاما
أبو بكر فما زاد على أن قال أو قد قال ذلك ؟ شن قال ذلك لقد صدق !

مفاظهم منه أنهم لم يلحوا منه موقع التشكيك فيما أرى عندهم على حدود التصديق ، وعادوا يسألونه . أتصدق أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وعاد قبل أن يصبح ؟

قال : نعم ! إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك من خير السماء في عبادة أو روحية . ثم ذهب إلى السبي ~~الذي~~ فطلق يسمع منه ويصدقه ويقول : أشهد أنك لرسول الله .

وهذا هو البرهان المنطقي كما دعونا ، وهو برهان لا حل فيه من وجهته التي يستقيم عليها ، وإن لم يكن هو البرهان الذي تعودنا المتأطقة والعلماء .

وهنا موضع صالح للمتفرقة بين هذه التراخي في طواجرها ، وللتوفيق بينها فيما تنتهي إليه من تشدان الحقيقة الكبرى .

إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك من خير السماء
ومحوى ذلك :

إنى لأصدقه لأنه أهل للتصديق .

هذا هو أساس الإقناع في منطق الإعجاب والإيمان ، فإن كان المصطلق أو للتجربة العلمية أساس آخر ، فليس معنى ذلك أن الأساسين متناقضان متدابران ، وإنما معناه أنهما نحوان مختلفان .

ولكن إن فرصنا مع هذا ، أنهم قد تناقضا وتدابرا فليس لخطأ إحداهما في جانب الصديق ، ولكن على التحقيق في جانب العالم أو المصطلق .

إن قال العالم أو المنطيق : إسى لا أصدق حديث الإسراء ولهذا أبطل الدعوة الإسلامية وأبطل قلها العظمة المحمدية ، فهو المخطئ في برهانه وهو الذي تعدى به حدود قياسه .

لأنه نظر إلى المسألة في غير جديتها الذي يُنظر إليه ، من حيث كان أبو بكر على صواب كل الصواب في نظره إليها من جانبها الأوفى ، أو جانبها الذي هو مناط التأييد والإنكار .

أبو بكر يأخذ النفس العظيمة مأخذاً واحداً ويصدق الخمر فيها جملة واحدة ولا يجزئها قطعة قطعة وخيراً خيراً ، فيطبخها كلها بخمر من أخمارها وجرء من أجزائها .

وأبو بكر ينظر إلى المسألة في أساسها فيطمئن إليها عند ذلك الأساس ويسنى عليه كل ما هو من الإضاعات والازبدات ، والمسألة في أساسها هنا هي مسألة الصلاح والفساد ، ومسألة التوحيد وعبادة الأصنام .

ومسألة المقابلة بين الأخلاق الجاهلية والأخلاق التي تأمر بها الدعوة المحمدية ، ومسألة الثقة بالمقاصد العظيمة والمساعى الكريمة . أو الثقة بالجهل الشائع والعادات الدميعة

هإذا كان أبو بكر قد نظر إلى هذا الأساس فهو المصيب .

وإذا كان العالم هو والمنطيق لم ينظرا إليه فهما اغتبطان ، وهم المقيمان لقياس على غير أساس قويم يد كان خليقاً بهما أن ينظرا إليه ولا يغفل عنه وهو أولى بالتقديم ولاعتبار ، سواء أحدهما بالاحساس والإيمان ، أو بالتجربة وبالتفكير .

ثرى لو مثل العالم والمنطيق والصادق أمام عرش « الحق » الرمد بعد ذلك اليوم بعشر سنين فسألهم فأجابوه كل على ما أجملا أنقأ ، فأبهم كان يسحطه وأبهم كان يرضيه ؟

يمثل العالم أو المنطيق بين يدي الحق فيسأله

ماذا سمعت قبل عشر سنين ؟

فيقول سمعت من رأى أنه أسرى من مكة إلى بيت القلم فلم أظفر منه ببرهان

فيسأله :

فماذا صنعت بعد ذلك ؟

فيقول

كذّته وصدقت المشركين ، ثم بقضت الدعوة الإسلامية وبقيت حتى اليوم
على سنة الجاهلية

فما يختلف اثنان إذنه في الجواب الذي يلقاه ذلك العالم أو ذلك المنطيق ،
ليقول الحق له إذن إنك أخطأت وحالفت العلم وانطق فيما صنعت لأن تلك
المقدمة لا تنتهي بك إلى تلك النتيجة ، وحديث الإسراء على أي معنى فهمته
لن يجعل النفس العظيمة لعوا ، ولن يجعل عملها العظيم مستحقاً للإبطال
ومثل الصديق بين ندي الحق فيسأله ماذا صنعت قبل عشرين ؟
فيقول

سمعت من رأى أنه أسرى من مكة إلى بيت المقدس فلم أشك فيما رآه
فيسأله

ولم لم يخامرك الشك فيه ؟
فيقول .

لأنى صدقته في أمر السماء فما يكون لي أن أكذبه فيما دون ذلك .
فيسأله

فلم صدقته في أمر السماء ؟
فيقول :

لأنى أعتقد فيه الخير ولا أعتقد فيه السوء ، ولأنى أعتقد السوء في منكروه
ولا أعتقد فيه الخير .

ليقولن الحق له إذن إنك أصبت وتأديت إلى التصديق من طريق صالح
للتصديق ، وواقفت المنطق والعلم أخيراً وإن لم تأت معهما في الطريق ، وإن هذه
السنين العشر لتشهد لك بصدق الوعي ولا تشهد به لمن يخالفوك . أخذت في
المنطق والعلم بالنتيجة ولم تنال بالمقدمة ، وأخذ المخالفون بك بالمقدمة ولم ينالوا
بالنتيجة . فأنت في سبيلك أهدي وأنت إلى المنطق والعلم أقرب وأدنى
أفيعهم فاعم من هذا أن ندين بقول القائلين

إن المعجّاج هو برهان الصّلاح ؟

كلا ! ليس هذا ما يدين به ، وليس هذا بالذى يقتضيه ما قدمناه ، وكل ما هنالك أننا نقرر حقيقة لا شك فيها حين نقول : إن أبا بكر كان أنهم للعظمة المحمدية عن أنكروها لأنهم شكروا ، في حديث الإسراء ، وإن المنطق والعلم لا يقضيان بمحاربة الدعوة المحمدية كائناً ما كان فهم انعامين لحديث الإسراء . فإن قال قائل :

إن المنطق والعلم بقصصان بذلك فهو يظلم المنطق والعلم فيما ادعاه عليهما بغير برهان ؛ وهو الذى يحالف البرهان التعمّسى فى أن

ولا حاجة لنا هنا إلى إلعاء البراهين العلمية أو البراهين المنطقية ، وإنما حاجتنا كلها ألا تُلغى البراهين النفسانية ، لأنها قد تتناول العظام الإنسانية فى عمومها فينطوى فيها العلم والمنطق معاً ، وتأتى الأيام بعد ذلك بتفصيل هذا الإجمال وتوضح هذا الإيهام

يقول قائل : وما مرجعنا فى البراهين النفسانية ؟ أنصدق كل من يدعيها ؟ أتأخذ بها حيثما رأيناها ؟ أدين بالإعجاب حيثما هتف هاتف بإعجاب ؟ فأقرب ما عندنا من جواب أن عظمة النفوس مستحقة للإعجاب كما يستحقه جمال الوجوه

فماذا عسانا قائلين لمن يسألنا وما مرجعنا فى جمال الوجوه ؟ . . . ولا حاجة هنا إلى مرجع ، ولا فائدة فى المرجع إن وحدناه

فجمال الوجوه لا يتوقف على مرجعه الذى سهب أو نجر من توصيحه . وعظمة النفوس من ناب أولى قائمة فى الدنيا بغير مرجعها الذى سوقها إليه ، ولا خوف عليها من قلة المراجع عندنا ، فهي تأتى حين تأتى وآياتها وبراهينها ، وحيثما ظهرت عظمة مُعجبة ظهر لها صديقون معجبون ، وأقبل عليها مقبلون وأعرض عنها معرضون ، ولن ينفعها المرجع شيئاً إن لم يكن فيها ما يغنيها عنه . وقد كان فى وسعنا أن نجترئ بهذا ولا نزيد عليه ولكننا نود أن نستريح

بالعقل إلى سند ما أمكنت أن يريجه . فغاية ما سترجح بالعقل إليه في هذا الصدد مأخوذ من كلام الصديق نفسه رحمه الله . وذلك إذ يقول :

« إن خير الخصلتين لك أبغضهما إليك » فالدعوة التي تزين لنا ما مستقيم إليه ليست بدعوة عظيم ، والدعوة التي ترفعنا فوق أنفسنا وتنهض بنا إلى ما يشق علينا هي الدعوة العظيمة في أصدق مقاييسها ، وهي التي تفرحنا بالواجب ولا تفرحنا بالهوى ، وحسبها ذلك « برهان مصابى » لا نهتدى إلى حبر منه ، فكل ما عظم ما فقد كلمتنا ما يشق علينا ، نتقل من إلى طور فوق طورنا ، فإن كنا على استعداد لهذا لا نتقال صلت إليه بموسى كما يبل الخسم إلى المعمور وإن كان غمؤه ليكلفه عبثاً عند الولادة ، وعملاً عند السنين ، وهماً عند المراهقة ، وعملاً عند بلوغه سن الرشد والاستقلال . . . وإن لم يكن على استعداد كرهنا وحسبنا الراحة في كراحتي ، وهي في الحقيقة داء يمنع النماء

مرجع « البرهان المصابى » الصادق في تقدير العظمة أنه سبيل القداء في طريق النماء ، وكل ما تركنا كما نحن أو تحذر بنا دون ما نحن فيه فبيمه وبين العظمة حجاب ، وليس له من صمائر النفس برهان .

بهذا البرهان النفساني واجه أبو بكر مسألة الدعوة المحمدية من حيث تبغى موجهتها ، ونظر إليها من جانبها الأصلي الذي تمحصر فيه المطرة الأولى ، أم محمد إمام خليق بالاتباع ؟ أم هو بطل جدير بالإعجاب ؟ إن كان كذلك فهو معجب به مثبج إياه ، وإن لم يكن فلا إعجاب ولا اتباع . وكل ما وراء ذلك فصول وانحراف عن الجانب الأصلي .

ومحمد بطل جدير بإعجابه ، إمام حقيق باتباعه ، فامتثالاً به إعجاباً ولازمه اتباعاً ، وعرف طريق الخير من بسطة لأمر أنه أشق الطريقين ، وعونه كرم الشجيرة من قبل أن المجد تكليف وجهه ، وأن الحق صبر وجهاد ، فكانت سُنَّته فيهما أن يحمل المعارم وأن يأخذ بيد المهيفض ، وأن يحور على نفسه وفاء بحق غيره ، فلم تصرفه الدعوة الإسلامية من باب عريش ، ولم يضادفه الجهاد لئدين على غير تأهيه وتدريب ، بل زاده يقيناً من طمعه واستواء على نهجه ، وجعله في صدر

هذه الدعوة مثل الإعجاب والإيمان ، وأبرزه للأجيال عموائاً « للشخصية » التي
يلج بها الولاء للبطلنة دروة مجدها وعاية تمامها ، ويستخرج منها كوامن قواها
وأحاسن مزاياها ، ويستقيم بها عسى سوائها ، ويرتقى بها إلى سمائها ، فهو هو
أبو بكر في تصديقه وولائه عسى أحسن ما يكون .
وهو هو الصديق .

برهانه في تصديق العيب كبرهانه في تصديق الشهادة لأن المرجع فيه إلى
شخص القائل لا إلى الشيء الذي يقال .

فلما ارتد بعض المسلمين من حيث الإسراء بالنبي إلى بيت المقدس قال
أبو بكر قوله قلت :

إني أمت به في أمر السماء فلم لا أومن به فيما دون ذلك ؟

ولما تشاور المسلمون في صلح الحديبية رضى من رضى وأبى من أبى ، وظهر
هما مطلقان متقابلان : منطلق عمر بن الخطاب يقول : إنا على الحق فلم نعطي
الذنية ؟ ومنطلق أبى بكر يقول :

إني أشهد أنه رسول الله فسم لا أتعد فيما ارتعبه ؟

ولما اختلف المختلفون في بعثة أسامة كان أمام أبى بكر حطط متعددت يختار
منها ما يشاء منها أن يحتفظ بالحيش لحراسة المدينة ، وأن يحتفظ به لحرب
أهل الردة ، وأن يبعث به إلى العراق ترصداً للفرس المندرين بالإعارة ، وأن يبعث
به حيث أراد رسول الله ، وإن قال بعض القائلين

إن الحال قد تبدل ، وإن مقام يؤذن بالمراجعة فيما أراد فشاء أبو بكر الخطة
التي شاعها محمد ، وأبى أن يأذن فيها بمراجعة أو تبديل .

ولما جاءوا بالأعطية يقسمونها كانت التفرقة بين الأقدار أدنى إلى التصرف ،
وكانت التسوية بين الأقدار أدنى إلى الاتباع وكان عمر يقول .

أعطى من حارب الرسول كما أعطى من حارب مع الرسول ؟ وكان أبو بكر

يقول : أنوَجِرهم على إيمانهم فعطيهم بمقدار ذلك الإيمان ؟ فكان عمر عنوان التصرف وكان أبو بكر عنوان الاقتداء

ومن أصالة الإعجاب بالبطولة فيه أنه كان مثلاً في أدب الملازمة وقُدوة في أصول المصاحبة ، وكان يقطره حبيراً يهراسم التي سميها اليوم « بالبروتوكول » لأن أدبه في توفير المعطى أدب الطبع الذي يهتدى من نفسه بالليل .

انظر إليه وهو يستأذن أسامة في استبقاء عمر بن الخطاب !

انظر إليه وهو يأبى إلا أن يركب أسامة وهو يشيعه سائراً على قدميه !

انظر إليه وهو ينادى بنته عائشة : يا أم المؤمنين !

هو في كل أولئك المعجب المؤدب بأدب المصاحبة الخبير بهراسم المعاملة ، الذي يلقي بوحى نفسه كيف يكون التعظيم . وكيف يكون السلوك ، وكيف تصان حقوق المراتب والدرجات

قيل :

إنه كان إذا قدم على الرسول وفود القبائل علمهم كيف يُسلمون وكيف يتكلمون بين يديه ~~الصح~~ .

وكان ~~الصح~~ يوماً في المسجد قد أطاف به أصحابه إذ أنبل علي بن أبي طالب فوقف فسلم ثم نظر مجلساً . والتفت ~~الصح~~ يرى أيهم يوسع له ، وكان أبو بكر على يمينه فأسرع فتزحزح عن مجلسه وهو يقول : ها ها يا أبا الحسن ! فبدأ السرور في وجه النبي ، وقال :

« يا أبا بكر . إنما يعرف الفضيل لأهل الفضل دوو الفصل » .

وكأنما خلق أمياً لسر ، فما تعوره صمة واحدة من صفات الأبناء للعظماء الذين يعجبون بهم ويغارون عليهم . ومنها هذا الأدب ، ومنها قلة الكلام ، ومنها الكتمان عنهم في خاصة شئونهم ، وكان أبو بكر في كتمان عن النبي يتصدي للملام ولا يبرح بكلام .

تأيمت حفصة بنت عمر فعرضها على عثمان ، ثم على أبي بكر ، ثم خطبها
النبي ﷺ

قال عمر : فقال عثمان : سأنظر في أمري ، فلبث ليالي ثم بقيني فقال : قد
بدا لي ألا أتزوج يومى هذا ولم يرجع إلي أبو بكر شيئاً ، فكنت أوجد عليه
منى على عثمان ، فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحها إياه
فلقيني أبو بكر فقال : لقد وجدت على حين عرضت على حمصة فلم أرجع
إليك شيئاً ؟ قلت : نعم قال : لم يحس أن أرجع إليك فيما عرضت على إلا
أنى كنت علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها ، فلم أكن لأفشي سر رسول الله
ولو تركها رسول الله قبته ،

فهو في هذا الکتمان قد جرى على خير سنة يجري عليها أسماء الأسرار !
أشفق أن يذيع سر الرسول ﷺ فيبدوله في العدول ، فتكون في ذلك ملامة ،
فأثر هو أن يلام على أن يعرض صاحبه للام .

ومع هذا الکتمان وهذا الكلام الزر كانت له حبرة بكياسة القول هي القدوة
العليا لمن جبلوا على مخاطبة العظماء .

فقال رجلاً يحمل ثوباً : أتبيعه ؟

فأجابه :

لا عافاك الله

قال :

هلا قلت وعافاك الله !

تلك نفس ملكتها شمائل الوقار والتوقير ، وامتزجت بها سليقة الإعجاب
والتعظيم ، حتى فاضت على جوارحها ، وسرت مرتجلة إلى جميع حالاتها ،
فهى هنالك تستشفها في بواطن الصمير وتلمسها فيما ظهر من الأعمال
والمعاملات ، وتلقاها من خلجات الذهن وبوادر اللسان ، وهى هنالك مفتاح

الشخصية كلها تنفذ بنا إلى خفاياها ، وتفتح لما استعلق من أسرارها ، ونغير لنا بين خصائصها وخصائص النفس التي تماظرها في المقام ، وتحالها في المزاج والتركيب .

لقد كان عمر بن الخطاب معجباً بمحمد غاية إعجابه محباً له غاية محبته ولكن « الإعجاب بالبطوة » كان صفة من صفاته ولم يكن صفة الأولى التي تغلب على جميع الصفات ، وخديفته الشاملة التي تنطوي فيها جميع الخلائق فإذا قضى حق الإعجاب بقيت له بقية للمناقشة والمراجعة ، واستطاع أن يجمع بين التوقير والاستفسار والتفسير ، فكانت له طريق إلى الإيمان تصاحب طريق الإعجاب وتنتهي معها إلى مثل نهايتها آخر المطاف

أما أبو بكر فقد كان الإعجاب أقرب طرفه إلى الإيمان ، وأكسرها على السراء وهما بعد هذا ودالك ملتقيان .

فإذا كان عمر ثاني المتصرفين بعد نبيه وأستاده وهاديه ، فأبو بكر أول المقتدين بغير سابق ، وبغير نظير .

وهما بعد قرينان يتقابلان في كل حركة من حركات التاريخ ، وكل ظاهرة من ظواهر الأمم ، ولا سيما في إبان الدعوات

نموذجان

النموذجان المتقابلان في الملكات والأخلاق ظاهرة معهودة في كل أمة ، ولا سيما خلال النهضة التي تترك فيها كوامن الملكات وتمنح فيها حقائق الأخلاق .

وعهد التاريخ بها في شئون الصميم كعهده بها في شئون المعرفة والحكمة ، أو في شئون السياسة والتشريع ، أو في كل شأن له أثر يمس أعمال الناس .

فاصطلح الفقاد على تسمية هذين النموذجين في المعرفة والحكمة بالنموذج الأفلاطوني نسبة إلى أفلاطون ، والنموذج الأرسطي نسبة إلى أرسطو طاليس ، أو النموذج الذي يتمثل في النظريات ويتعلق بما وراء الطبيعة ، والنموذج الذي يتمثل في التجربة والملاحظة ويتعلق بالطبيعة وظواهرها المحسوسة

وهي الأدب والفن يوجد المثاليون عشاق أشل الأعلى ، والواقعيون طلاب الواقع الذين يأخذون الدنيا كما هي ويصنعون الناس على ما هم عليه .

وفي السياسة محافظون ومجددون ، وفي التشريع حرفيون ومعنويون ، وفي العقيدة أو فقه العقيدة مقتدون ومحتشدون ، وفي ميول الناس ومشاربهم عاطفيون وعقليون ، وأصحاب أثر أو أصحاب إشار

وليس المقصود بالنموذجين المتقابلين ما تقابل الصدين اللذين يتناقضان كما يتناقض الصواب والخطأ ، والخير والشر ، والعلم والجهل ، والهدى والضلال

ولكن المقصود هو التقابل الذي يتمم فريقاً بمزايا فريق ، ويعين قوة نافعة بقوة أخرى تكافئها ، ويزدوج في عناصر الأمة كما يزدوج الحماحان اللذان يستقل بهما الطائر ، ولا يستقل بفرد جناح .

هذان النموذجان معهودان ، لارمان .

معهودان على الخصوص حيثما نهضت أمة من الأمم بجميع قواها وجميع مزاياها ، وجميع ماضيها من عدد الأهبة والخطة وبواعث لإقدام والإحجام

ولازمان في النهضات على الخصوص حيثما تقدمت النهضة في طريقها واحتجب عنها إمامها وهاديها ، وأصبح لزأماً بعده أن تتقابل القوى ، وتتعاون الجهود .

ومن تمام الدعوة المحمدية أنها كشفت هذه النماذج المتقابلة في الأمة العربية بين عشية وضحاها ، فإذا الأمة العربية كلها كأنما هي حشد مستعد بكل عدة ، عتزوّد بكل زاد .

ظهر فيها أقطاب الشجاعة وأقطاب الدهاء ، وظهر فيها انقدمون والمتحذرون ، وظهر فيها الخياليون والعمليون ، وظهر فيها كل طرف وما يقابله من طرف يوازنه ويستند إليه .

وبين هذه النماذج كلها نموذجان من الطراز الأول ، يوشك أن يحتمع قيهما كل ما تفرق في غيرهما من المكات والشماش والميول نموذجان كبيران تعيب في أطرائهما جميع النماذج الصغار وهما نموذج الصديق ونموذج الماروق .

بين هذه الرحلين العظميين تقابل كثير الشعب متعدد الأبناء : تقابل ينتهي إلى التجاذب والإخاء ولا ينتهي إلى التدافع والنهار ، لأيهما كانا يحومان معاً في نطاق كوكب واحد ، أو نظام كوكبي واحد كما تحوم السيرات والأقمار حول شمس واحدة هي لها جميعاً مركزاً أصيل لا تفصل عنه

وربما دخل في وجوه القابل بين هذين الرحلين العظميين أكثر ما أجملاء من الفوارق التي تختلف بها شادح الناس . العقل والعاطفة ، والحفاظة والتجديد ، والواقع والمثل الأعلى ، وما لا يحصى من الألوان والشيآت ، والأطراف والحدود

ولكنها على تعددها وحتلافها فوارق متناسبة متوافقة تقبل التلخيص في فارق واحد يطويها في معظم نواحيها ، وهو الفارق بين نموذج الاقتداء ونموذج الاجتهاد .

كان أبو بكر نموذج الاقتداء في صدر الإسلام غير مدافع

وكان عمر هي تلك الفترة نموذج الاجتهاد دون مراة .

وكلاهما كان يحب النبي ويطبعه ويحرص على مسه ويعجب به عاية ما
فى وسعه من إعجاب .

ولكنهما فى ذلك طريقان يتوازيان ، وإن كنا لا يتناقضان ولا يتحدان

وإن بينهما فى ذلك لفرقا لطيف المأخذ عسير التمييز . نحاول الإيضاح عنه
جاهدين ، ونرجو أن نبرزه بأوفى ما يستطيع له من إبراز ، وبحسب أننا موفقون
حين نعمل إن تقديم وصف على موصوف يكفى فى الإبانة عن هذا الفرق
الديق الذى لا ينفسح حتى يتسع لأكثر من هذا التفريق

فأبو بكر كان يعجب بمحمد النبى .

وعمر كان يعجب بالنبي محمد

ونزيد القول إيضاحاً فنقول . إن حبّ أبى بكر لشخص محمد هو الذى هداه
إلى الإيمان بنبوته وتصديق وحبه .

وإن اقتنع عمر بنبوة محمد هو الذى هداه إلى حبه والولاء له والحرص على
سنته ، وعلى رضاه .

ولهذا كان أبو بكر صاحباً آمن بصاحبه الذى يطمئن إليه ويحمد خصاله ،
وكان عمر عدواً رده الاقتناع إلى مودة الرجل الذى كان يتكره ويعديه

ولهذا كان أبو بكر يطيع محمداً فيفهم القرآن ، وكان عمر يأخذ بالقرآن أو بما
يفهم من مشيئة الله فيما قش محمداً حتى يثوب إلى الفهم الصحيح .

هما قريبان جِدَّ قريبين .

ولكنهما ليسا بشيء واحد على كل ما بينهما من اقتراب .

أو هما كما قلنا فى حتام الفصل السابق : أبوبكر أول المقتدين ، وعمر ثانى
المجتهدين ، وبذلك يتكافآن ولا نقول بتفاصيل

نعم يتكافآن ويتعادلان ، وهذا الذى نريد أن نؤكد ونجسب فيه سوء الفهم
والتفسير

فليست المقابلة بين هذين الرجلين العظميين مقابلة بين قوة وضعف وقدرة وعجز عن قدرة

كلا . هذا أبعد ما يحظر على بال أحد يدرك فصائل الرجلين العظميين ويعرف ما لكل منهما من خلق مكين وعمل جليل فإن الصعف «سلبى» لا يُجنى منه حمل عظيم .

وصلاية أبى بكر فى حرب الردة لم تكن صلاية «سلبية» تقول «لا» فى موضع «نعم» ولا تزيد .

ولكنها كانت صلاية تشوب إلى قوة لاشك فيها : قوة مصدرها الاقتداء . هذا لا يهم فى وصفه بالقوة وإيعادها من صفة الصعف والعجز عن القدرة . . . وإنما المهم أنها قوة فعالة ، وأنها قوة عظيمة لا مرأى

ليست المقابلة إذن بين هذين الرجلين مقابلة بين قوة وضعف ، وقدرة وعجز عن القدرة ،

ولكنها مقابلة بين القوة من نوع والقوة من نوع آخر ، وكلتاها فعالة ، وكلتاها ذات أثر فى الإسلام ، وفى العالم ، جليل

وليس من الضرورى اللازم أن يكون كل مقتد أقل فى الشأن والأثر من كل مجتهد برأيه ، فقد يكون من المقتدين من هو أكبر وأقدر من المجتهدين ، وقد يكون الاقتداء وكله حير ، ويكون الاجتهاد ولا خير فيه . ولعلنا نوضح هذه الحقيقة بالمثل المحسوس ، لأنه أقرب إلى المشاهدة والإقناع

فالمصابيح الكهربائية منها ما هو أم مستقل بمفتاح ، ومنها ما هو تابع موصوب بمفتاح غيره .

ويتفق مع هذا أن يكون «المصباح الأم» أصغر حجماً وأضعف بوراً من المصباح الذى يتبع غيره ويضىء بمفتاحه ، وهما أقرب مثل محسوس للاجتهاد والاقتداء

كذلك الكوكب الثابت والسيارات التى تدور حول غيرها لا يلزم أن يكون كل كوكب ثابت أصغر من كل سيار دائر ، وإن تكرر هذا فى العيان وسبق إلى الأذهان

وعلى هذا النحو كان الفرق بين الصديق والفارق ، بين أول المقتدين وثاني
المجتهدين فهو بين قوة من نوع ، وقوة من نوع آخر ، ولا محل للضعف في المواجهة
بين هاتين القوتين .



وهناك مقابلة أخرى بين الصديق والمارق لا تموتنا الإشارة إليها لأنها مقابلة
أصلية فيما تقول إليه من الصفات والآثار ،
ونعني بها المقابلة بينهما في تكوين البنية وتركيب المراح ، وهي أيضا مثل
عجيب من أمثلة التقابل بين هذين الرجلين العظميين
فكان أبو بكر نموذج القوة في الرجل الدقيق .

وكان عمر نموذج القوة في الرجل الجسيم
ومن عجيب المصادفات أن هذا كاد غزير الشعر يشعر بشئ العزارة فيه ، وهذا كان
أصلع ، يشئ النراة فيه ، ليتم بينهما التقابل حتى في الصفة التي لا يقتضيها
اختلاف البنية بين الرجل الدقيق والرجل الجسيم .

قلنا في كتابنا عبقرية عمر «إن العالم الإيطالي لومبروزو ومدروسته التي تأتم
برأيه يقررون بعد تكرار التجربة والمقارنة أن للعبقرية علامات لا تحطها على صورة
من الصور هي أحد من أهلها وهي علامات تتفق وتتناقض ولكنها في جميع
حالاتها وصورها تخط من اختلاف التركيب ومبايسته لتونية العامة بين أصحاب
التشابه والمساواة . فيكون العبقرى طويلا نائنا الطول ، أو قصيرا بين القصر ، ويعمل
بيده اليسرى أو يعمل بكليتا اليدين ، ويلفت النظر بخرارة شعره أو بنزارة الشعر على
غير المعهود في سائر الناس ، ويكثر بين العبقيريين من كل طراز جيشان الشعور
وفرط الحس وعراية الاستجابة للطوارئ فيكون فيهم من تفرط سوره كما يكون
فيهم من يفرط هدوءه ، ولهم على الحملة ولع بعالم الغيب وخفايا الأسرار على
نحو يلحظ تارة ، في الزكاة^(١) والفراصة ، وتارة في النظر على البعد أو الشعور على
البعد ، وتارة في الحماسة الدبية أو في الخشوع لله .

تلك جملة الخصائص العبقرية التي أجمعناها من كلام لومبروزو وأشباعه ، فكأننا

(١) الزكاة للقطنة والفهم

شأن القدر أن يتمق الصاحبان في جوهر العنصرية ويختلف في أعراضها اختلاف انقبالة ، حتى في عزارة الشعر ويزارته على غير ما يقتضيه هذا الاختلاف .

والمقابلة بين الصديق والعاروق في تكوين البنية وتركيب المزاج كان لها أثر كبير في انقبالة بين الرحلين العظيمين في الخلائق والجهود ، فعمر ، بما شأ عليه من الحسامة والهيبة ، لم ينشأ وله سبه من البية ينهه أبداً إلى وجوب التهذئة والترويض ، فعصى تلك البنية كما يحصى راكب العرس الجموح غير متوجس من جماحه ، لأنه مطمئن آخر لأمر إلى العنان .

وأبو بكر . بما شأ عليه من الدقة والحول ، قد شأ وله منه إلى غوثل الحدة التي تعهد من أصحاب هد التركيب ولا تؤمن عوائلها عليهم ، فراض نفسه على التهذئة والترويض ، ومضى تلك البية كما يمضى راكب القرس الجموح عودها قبل الدحول في المضمار أن تدع الجماح ، وأن تشر بالعنان القابض عليها في كل حين ،

وهنا لا تكود التفرقة أيضاً من قبيل التفرقة بين القوة والضعف ، وبين القدرة والمعجز عنها ، ولكنها على ما قدمنا تفرقة بين قوة وقوة تكافئها ، أو بين طرازين من القدرة يتقابلان .

فلو كان أبو بكر ضعيفاً قليلاً لجمحت به الحدة ، ولم يعتصم من عزمه إلى كايح قدبر على الكبح ، فتعظم كما ينحطم الضعفاء

ولو كان شعوره بنفسه شعور ضعف وقلة لاستقر على هذا الشعور واستكان إليه ، ولم يأخذ نفسه بالسمت والوقار ، ولا بمناقب السيادة والمروءة ، ورصى له ولذويه بما يرضى به الضعفاء .

ولكنه شعر من نفسه بقوة يعتصم بها ويقوى على رياضتها ، فكان مثلاً للمعدة الرائعة والنفس المروضة كما تكون في الرجل الدقيق المحيل



في حياة الصاحبين موقف من المواقف النادرة التي يظهر فيها الرجل كله ، ولا يتفق في التجارب النفسية أن يواجهها الإنسان مرتين في حياته ، وهو الموقف الذي صاحها يموت النبي عليه السلام

ليس للمصاحبين غير صديق واحد بمنزلة محمد عندهما من المحبة والتجلة ،
وهما لا يروغان كل يوم نبأ فاجع يسوءهما كما يسوءهما بيا موته وانقصه
عشرته والانس بقربه . فالموقف نادر ، والبليّة به خليقة أن تمثلى الرجل فى كل
ما ينطوى عليه من بديهة وروية . .

وابتنى به عمر فعضب غضبته الموهوبة وثار بالثعاه يتوعددهم ليعطس أيدي
رجال وأرجلهم يزعمون أن محمداً قد مات .

غضب غضبة الرجل المعلومه بقوته وحميته ، الذى لم يبيده مبه قط إلى
ترويض غضبه والمبالاة بعواقب ثوراته ، وكأنما قام فى دخيلة نفسه أنه يستكثر
حتى على الموت أن يجترئ على الصديق الذى يحبه ذلك الحب ، ويجده تلك
التجلة ، ويعتقد فيه تلك العقيدة ، وينتظر حتى من الموت أن يتحامى جانب
ذلك الصديق ، ويرعى له حرمة لا يرعاها لسائر الأحياء

وأبو بكر يحب محمداً كما يحبه عمر ، ويأسى لفراقه كما يأسى ، ويرفعه
مثله درجات فوق مقام الأحياء من قبله ومن بعده ، ولكنه رجل راض نفسه
ونمع حدة طبعه ، وعرض الصبر على ما ليس يدفعه دافع ولا تغنى فيه حيلة ،
فإن كان تسليم فهذا أحق المواقف بالتسليم وأولاها بطول ما ارتاض عليه من
صبر ، وما تأهب له من أسوة .

بذلك أدى كل من الرجلين ضريرة طبعه ومزاجه الذى لا معدنى به عن
مطاوعته والاستجابة لدواعيه

ثم زالت العاشية الأولى فظهر الرجلان فى حالة القرار كمن ظهرا فى حالة
المفاجأة ، ظهر أن عمر لم يكن ثورة كله ، بل كانت فيه إلى جانب الثورة روية تفرغ
للأمر فى أخرج أوقانه ، وظهر أن أبا بكر لم يكن روية كله ، بل كانت فيه إلى
جانب الروية مطاوعة لسليمة الحب والألفة قد تشعله عن العواقب إلى حين

فبينما هو مشغول بتجهيز رسول الله إذا بالأنصار يجتمعون فى سقيفة بنى
ساعدة ليتحدوا لهم أميراً دون إخوانهم من المهاجرين ، وإذا عمر يتأهب للأمر

أهنته ، ويعاجل الخطب قبل استفحالها ، ويأخذ أبا بكر من بيت رسول الله إلى سقيفة بني ساعدة ليبياعه هناك بالخلافة . ويتقى الحدة من أبي بكر فيهيئ في نفسه كلاماً يصلح لذلك المقام يهد به بكلامه . وفي بعض الروايات أنه فكر في أمر المبايعة قبل ذلك حين لم يعكر فيها أحد من المهاجرين ، وأنه شاور أناساً وشاوروه فيما يكون بعد وفاة رسول الله . فما كانت عصبته الشائرة إلا رثماً قفى على العنان بكلتا يديه ، ثم كان غمابه ذلك أطوع عماد

كلا الرجلين العظيمين فيه روية وفيه حدة ، تأتي الروية أولاً أو تأتي الحدة أولاً ذلك هو موضع الفارق من بواطن المزاج والتركيب ، ولكن الروية هناك قائمة في المزاجين حين تزداد .



وقد نلمس هذه الجوانب المتقابلة من مزاج الصاحبين في كل مسألة فهدبا فيها متعبيين ونزعاً فيها إلى رأيين مختلفين

من ذلك مسألة الردة ، ومسألة خالد بن الوليد ، ومسألة الأعطية والوافل للمؤلفة قلوبهم ولغيرهم من عامة المسلمين .

في كل مسألة من هذه المسائل كان كل من الصاحبين عند طبعه ومزاجه ، أو عند المعهود من وصفه واستقصاء أحواله ، دليل أصدق دليل على حلوص الرأي وصراحة الضمير والتوجه إلى الأمر بما يستدعيه عندهم من مقدماته وموجباته ، هي غير حيد ولا انحراف عن سواء السبيل .

ففي مسألة الردة جنح أبو بكر إلى الصرامة وجنح عمر إلى الهوانة ، وفي ظاهر الأمر أن هذا الاختلاف على غير المنظور من طبيعة الرجيين ولكن الواقع أنه لا يخالف المعهود إذا مصينا فيه إلى ما وراء الظاهر القريب .

فقد كان أبو بكر عند طبعه حين أبي أن يترك عقالا بما كان يأخذه رسول الله من فريضة الزكاة ، وكان كذلك عند طبعه حين استشاره الاستخفاف به والجرأة عليه ، كأنهم يستصغرونه ويتقحمونه ، وهو الذي توقّر طول حياته من مكانة من

يُستصغر ويتقحم ، لدقة في تكوينه وقوة في نفسه تعاف أن تُحسب عليه الدقة في التكوين صغراً في المقام .

وقد كان عمر عند صبعه حين أحد بالتصرف والاجتهاد على حسب اختلاف الأحوال ، ورتق من مصير الأمور إلى الخير بأية حال



أم مسألة خالد بن الوليد فقد كان السؤال فيها هل يحاسب أو لا يحاسب؟ فكان جواب الصاحبين على حسب المعهود فيهما من مزاج وخيطة ، ولم يكن مثطوراً أن يفصّل أحد منهما بغير ما قصناه

قتل خالد مالك بن نيرة وبنى بامرأته في ميدان لقتال على غير ما تألفه العرب في جاهلية وإسلام ، وعلى غير ما يألفه المسلمون وتأمر به الشريعة

أم يحاسب على هذا أو لا يحاسب عليه ؟

أول جواب يندر إلى عمر عن هذا السؤال هو إحاسية بغير وئاء ولم لا ؟ ما الذي يُتقى ؟ ما الذي يكون ؟ إن للبالاة بعقبى حسابه ليست بما يروع عمر ويشنيه ، بل لعلها بما يحفزها إلى التحدى والإسراع فيه .

أما أبو بكر فقد استشار هنا طبيعة الاقتداء ، وطبيعة الإعجاب بالبطولة وطبيعة اللين والإعفاء ، وهي تشير عليه بالإعفاء من الحساب أو بالإمهال به إلى حين .

فهو لا يعزل فائداً من فواد رسول الله وسيفاً من سيوفه ، وهو لا ينسى بطولة خالد وإن زل أو أخطأ التأويل ، كما قال ، وهو يؤثر اللين لأنه في عدمة أحواله مطبوع عليه ما لم يحسه الأمر فيما يشير .



وجاءت مسألة الأعطية فأبى أبو بكر أن يتصرف في تمييز الأقدار وأقدم عمر على التصرف والاجتهاد .

وجاءت مسألة المؤلف قلوبهم فأعطاهم أبو بكر متبعًا سابقة الرسول وأنكر
عمر عطائهم لأنهم كانوا يأخذون ما أخذوه والإسلام ضعيف . .
فأما الآن فماذا عساهم أن يصنعوا إن لم يأخذوا؟ ما يصنعونه كائنًا ما كان
لا يكره ولا يشبه .



وهكذا سنقصي علل الخلاف بين الصحابين في كل مسألة من المسائل فإن
هي في مردها خلاف بين قريتين من نوعين ، أو خلاف في تناول الأمور على
صريقتين ، ولم تكن قط خلافًا بين قوة وضعف ، أو بين حرص وتصرُّف ، أو بين
أثرة وإشارة

ومن المسلم أن القوة ضرورية ، وأن العظمة صنف ، وأن اللين لا يلين أبدًا
والشد يد لا يشتد أبدًا ، فلاند من اختلاف بين العظيم والعظيم ، ولابد من
اختلاف بين عمل العظيم الواحد في أوقات ، وليس العجب أن يجري كل
منهم على خطئه وأسلوبه ، وإنما العجب أن تتعدد ضرور القوة وتتعدد صروف
العظمة ثم تتوحد الخطئة والأسلوب

وموضع العبرة - بل موضع الإعجاز فيما تقدم - هو تلك الدعوة التي شملت هذه
القوة كلها في طية واحدة ، وصممت هؤلاء الرجال حميفًا حول رجل واحد ،
وجدبت إليها أكرم العناصر التي تأتي بالعطائم وتصلح للحير وتقدم على العدا

فأوجز ما يقال في تلك الدعوة أنها حاظت حير ما في الإنسان فلئها أمثال
الصديق والقاروق ، وأقبل عليها الأقواء مخلصون من كل طرار فليست هي
بالدعوة التي تحاطب الضعف والضعفة ، ولا بالدعوة التي تحاطب الطمع
والأثرة ، ولا بالدعوة التي قوامها الترهيب والترعيب ، ولكنها الدعوة التي يجيبها
أكرم سامعيها ، ويتحلف عنها أقلهم سعيًا إلى الخير واقتدارًا عليه .

والصديق والعاروق حير غادج الرجال في الخزيه العربية ، ففي حالات هذين
العظيمين دليل على السر الذي من أحله نادى محمد قومه ومن أحله أجيب ،

ومن قال من المكابرين والمتعنتين إن دعوة محمد لم تكن بالدعوة الصالحة
فليقل أى صلاح كان يلقى في الجزيرة العربية عجيبين أكرم وأقدر من هؤلاء
العجيبين؟ وأي هداية بين الناس أشرف من الهداية التي تجمع إليها أقوى الأقوياء
وأطيب الطيبين ، على ما بينهم من تقابل في المزاج والنراى كأعجب ما يكون
التقابل بين المختلفين المتفاوتين؟ وأي إقناع أقنع الصديق؟ وأي إقناع أقنع
الفاروق؟ الخشية؟ المتعة؟ الشر؟ الطمع؟ لقد كان إذن أحر من يجيب ، وكان
خصوصهما إذن أسرع العجيبين وأسبق المؤمنين!

إسلامه

قيل إن أبا بكر رضي الله عنه كان أول من أسلم ، وانفقت الأقوال على أنه كان أول من أسلم من الرجال ، وأن السيدة خديجة رضى الله عنها كانت أول من أسلم من النساء ، وكان على رضي الله عنه أول من أسلم من الصبيان ، وكان زيد بن حارثة أول المسلمين من الموالى ، وهو الذى نساء النبى عليه السلام

وقال النبى عليه السلام : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت منه عنقه كجوة ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبى بكر ، ما عكم^(١) عنه حين ذكرته له ، وما تردد فيه » ، فلم سهل إسلام الصديق هذه السهولة التى لم تؤثر عن أحد غيره كما جاء فى ذلك الحديث الشريف ؟

لعلنا نختصر الطريق إلى جواب هذا السؤال إذا نحن سألنا عن الموانع دون الإسلام ، قبل أن نسأل عن الموجبات . .

لأننا إذا بحثنا عن العقبات فلم نجدها ، أو بحثنا عنها فوجدناها قليلة العدد هيئة التدليل ، بدت لنا سهولة الطريق من غير جهد كبير فى البحث عن الموجبات ، وعرفنا أنه « لا مانع » فعرفنا أنه لا صعوبة ولا محل للتردد والمقاومة فما الذى كان يمنع أبا بكر أن يجيب دعوة الإسلام ؟

بل ما الذى يمنع إنساناً من الناس - كائناً من كان - أن يجيب الدعوة إلى عقيدة جديدة ؟

موانع شتى

ومن الحقائق الملحوظة أن هذه الموانع كانت أقل ما تكون فى أسى بكر الصديق ، فلانعرف أحداً من عصر النبى كانت موانعه دون إجابة الدعوة ، بلخديجة أقل من موانع هذا الرجل الصادق المصدق ، المستعد لإجابة النبى إلى هدايته كأنما كان معه على ميعاد

يجمع الإنسان أن يصمى إلى دعوة العقائد الجديدة موانع شتى من أفات العقل

(١) حكمه : نأمر .

والخلق والبيئة ، تجتمع وتتفرق ، ويُبتلى الرجل الواحد بها جميعاً ، وقد يبلى
بما جمع واحد منها فيحول بينه وبين الإصغاء والإجابة

يمعه أن يجيب الدعوة إلى المصلحين عطرسة ، أو سيادة مهددة ، أو مصلحة
في بقاء القديم ومحاربة الجديد ، أو ذهن معلق لا يتفتح للفهم والتفكير ،
أو معامسة للشهوات تحب إليه أن يستنيم إلى العرف الذي يبيحها ويعزف عن
الهدية التي تحظرها وتقف في سبيلها ، أو تعصب عصوب للعقيدة التي درج
عليها ، أو شعور بقوة سلطان تلك العقيدة في أبناء قومه ، سواء منهم المتعصبون
لها والقابضون بها على الحجارة والمداراة ، أو حين ينهض أن يخرج على المألوف
ويتصدى بسخط الساخطين وإن تبين طريق الاستقامة والسداد ، أو إيقال في
الشخوذة بصد الإنسان عن كل تغيير وميل به إلى كل نواكل ومتابعة وتقليد ،
أو حداثة من تجعله تابعاً لغيره في الرأي والخلق وتجعل له شرة تحجبه عن
التروية والمراحمه ، أو دلة مطبوعة تلحقه بمن أدله وبسط سلطانه عليه

فالمطرسة حلة نابى على صاحبها أن يستمع إلى قول أو يصيخ إلى دعوه ،
أو ينزل إلى متابعة إنسان ، ترفعاً عن الإصغاء قل أن يهديه الإصغاء إلى
موافقة أو إنكار .

والسيادة المهددة توحى إلى صاحبه كراهة التجديد ، لأنه يحس بالسداة أن
صاحب الجديد أولى منه بالسيادة إن شاع ما حذره بين الناس ، فتبطل سيادته
بطلان القديم قامت عليه ، وقيام الجديد الذي سحبه وعفاه .

والمصلحة في حلة من الحالات المستقرة تجعل الرجل محباً لتلك الحالة حبه
للمسقة ، كارهاً لتبديلها كراهته للحسارة ، ميالاً إلى محاربة الدعوة الجديدة قل
أن يبحث فيها ويتعرف وجوه الخير الذي قد يصيبه منها .

والدهن المعلق بجهن ما يقال ، وبمادى ما يجهن ، ويمر من كل ما يشق عليه ،
وأول ما يشق عليه أن يفهم شيئ على وجهه السوى ، أو يتهاى للفهم بأية حال
ومعامسة الشهوات تُبغض إلى المرء سلوانها والإقلاص عنها ، وتقرن عنده
دعوات الإصلاح والاستقامة بشؤم التغيص والتكدير ، فيتهرب بها ويتراجع لها ،
كما ينزعج النائم المستغرق أيظفته من نومة لذيذة فد استراح إليها

والتعصب الغضوب لما اعتقده المرء يشبهه أن تمس عقيدته كما يشور حمادة
الحورة أو الذود عن الآباء والأجداد ، لأنه يحسب عقيدته ملكاً له ولا يأنه يرد
عنها من يهجم عليها ، كما يرد صاحب البيت من يهجم عليه .

والعقيدة إذا كانت قوية السلطان علت عرتها على عزة العقل والفؤاد ، فأصر
عليها من كان خليقاً أن يعافها ويعرب عيبها لو دعى إلى تركها وهي تتداعى
وتتزعزع وتؤذن بالزوال

والجس يحيف صاحبه أن يجهر بالحق ويبتعد به عن طريق الخفاة ، فلا يدعو
إلى الصوت الذى عسى أن يفوده إلى الإصغاء للإيمان فالجهر بما يصير .

والشيخوخة عدو لكل طارق ، ولحدثة بين طيش يدعو إلى التمرد وطاعة
تدعو إلى مشابعة الأولياء ، والذلة حجاب بين اللئيل ونفسه يحجبه وراء من
أنه ، فلا تصل إليه الدعوة إلا من تلك الطريق

هذه موانع الإصغاء إلى كل دعاء جديد .

أو هذه أعم الموانع التى تحول بين معظم لأسماع والإصغاء إلى ذلك الدعاء
ومن الحقائق الملحوظة - كما أسبقنا - أن أيا نكر كان براء منها جميعاً ،
أو كان كأبرأ الناس منها فى عهد الدعوة المحمدية .

فلم يكن متطرساً ، بل كان مشهوراً بالدعة والتواضع ، ما ألفا لقومه كما قال
واصفوه «محباً سهلاً» وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر ،
لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته ،

ولم يكن مهدداً فى سيادة مصرورية على أعناق الناس ، فكان من قوى
الشرف فى قريش ، ولكنه لم يكن من فائلها الساطية التى تستطيل بالمعنى
والطفيان ، كان من «قيم» وهى بيت قرشى محدود ، ولكنه لم يمنع أيا سفيان أن
يقول كما قال لعلى بن أبى طالب يستشير حين يبيع أبو بكر بالخلافة - «ما بال
هذا الأمرى أدل قبيلة من قريش وأقلها؟» ولم تكن «قيم» أدل قبيلة فى قريش
كما دل أبو سفيان ، ولكنها على أية حال لم تكن بمقام السطوة والسيادة التى
تطمس الصمائر والألباب .

ولم تكن لأبي بكر مصلحة في دوام الجاهلية ، لأن صمته فيها كان ضمان
المعاصم والدييات ، وربما كان هذا العمل أدنى إلى الخسارة منه إلى المصلحة
والعزيمة ، فلا راحة ولا أسف عليه . أما النجاسة فلا خوف عليها من الدعوة
الجديدة ، وصاحبها الداعي إليها تاجر يبيعها ويزاولها ويحصن عليها

ولم يكن مغلق الدهن ولا وصَّفه أحد بهذه الصفة من محبيه أو شائيه ، بل
كان معروف الذكاء يلمح الدخن البعيد فيذكره ويسبق المخاضرين إلى نهجه
والقطة لموضع الإشارة فيه ، كما حدث غير مرة وأبى عليه السلام يتحدث
أو يعظ الناس ،

ولم يكن معاصيًا للشهوات ، بل كان يكره ما شاع منها بين الجاهليين من
ذوى الأقدار والأخطار ، فلم يشرب الخمر ولم يركب الدس ولم يشتهر قط
بوصلة بعينه بها من أسرعوا إلى معاقبته يوم هجر عقيلة الجاهلية وجنح إلى
عقيلة الإسلام .

ولم تكن عبادة الأوثان عقيلة مكينة للسلطان في عهد الدعوة المحمدية ، بل كان
أناس يهيمونها وأناس يبحثون عن غيرها ، وأناس يؤثرون عليها للمسيحية واليهودية ،
فلا يصابون بمكروه في أكثر ما سمعنا من أخبار أوثانك المتسحين أو المتهودين .

وعلى هذا لم يكن أبو بكر متعصبًا للجاهلية وصادقاتها ، بل لعله كان مرددًا
لها مستخفًا بالأصنام وبأحلام عابدها ، وإذا صبح ما جاء من أنباء نجباء
الأنبياء فهو لم يسجد لصنم قط ؛ وقال : لما تاهزت الخنم أخذ أبو حنيفة بيدي
فانطلق بي إلى محدد فيه الأصنام فقال : هذه ألهمتكم الشم العوالي ، وحلاني
ودهب ، فدنوت من الصنم وقلت : إني جائع فأطعمني ! فلم يجبني . فقلت :
إني عار فأكسني ! فلم يجبني . فألقيت عليه صخرة فخر لوجهه .

ولم يكن الصديق بالحنان ، ولا بالشجاع الذي نصيبه من الشجاعة قليل ،
بل كانت شجاعته تفوق شجاعة الأبطال لعدودين في الجاهلية والإسلام
فثبت مع السبي في كل وقعة حين ولَّى من ولَّى وأبطأ من أبطأ ، وعدمه بحياته
في حروب الرقة وله مدوحة عن خصوصها ، ولم يذكر في أخباره قط خبر نُكول
أو خوف على حياة ومال .

وأن يكن شبيحاً فاني متابعاً لكل قديم ، ولا حدثاً صغيراً تطيش به شرة الشباب حين دعاه محمد إلى دينه وعده ، بل كان رجلاً ناضجاً في بسطة الرجولة ، يققه لأمر ويعتدل بين الصبا الماكر والكهولة المولية ، ويرن القول بعهم نافذ وحكم صادق ، وعقل راجح يعرف الترجيح

تلك حملة الموانع التي تحول بين الإنسان وقبول الدعوات الجديدة إلى الإصلاح ، وكلها لها عاقبة على الأقل إن لم نقل أن جانب الدواعي في مكابها أوضح من جانب الموانع ، ومعنى ذلك أن الصديق لم تكن بينه وبين الإسلام عقدة تصده عن ورود ، وأن طريقه إليه كانت ممهدة مفتوحة يحطو فيها خطوته الأولى فلا يلبث أن يتبعها بخطوات .

على أن الأمر لم يقتصر على قلة الموانع في طريق الصديق إلى الإسلام . فقد كانت هناك الدواعي التي أشرن إليها في مكان تلك الموانع ، وكانت للصديق خلائق عاملة تقربه من العقائد القويمة ، وتجعله من يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، ولا حاجة به إلى أكثر من ذلك ليعرق بين سائر الجاهلية وسائر الإسلام ، ويميز بين ما هو حقيق بالترك والإعراض ، وما هو حقيق بالحرص عليه والإيفاض^(١) إليه

كان لرجل صادق الطبع مستقيم الضمير ، لا يلتوى به ، عما يعلم أنه الحق ، عوج ولا سوء دخلة ، وغرف باسم الصديق إذ عرف الناس فيه الصديق من أيام الجاهلية فل أن يدين بالإسلام ، لأنه كان يضمن المعارم والديارات فيصدقونه ويعتمدون على وعده ويركضون إلى وهائه ، وقيل . إنه سمي بالصديق لتصديقه النبي في كل ما أنبأ به من النعيات والبشائر ولكمهم لم يحتلموا في تصديق صمائه والاعتماد على وعده ، وإن احتلموا في سبب التسمية وفي ميقاتها من الجاهلية أو الإسلام .

ومن كان على هذا الصديق في الخليفة فلا حجاز بينه وبين دعوة إصلاح ، وليس من شأنه أن يصمم أدنيه عن قول صادق ودعاء مستقيم ولا أن يعادي الحق ويلج في عدائه ، ششة المكبرين المستكبرين

(١) لإيفاض الإسراع

وكان مطبوعاً على الحماسة لما يعتقد فيه الخير والصالح ، يطلب العقيدة ويطلب المعتقدين بها واهتدين إليها . يبدو ذلك من إسراره إلى التمشير بالإسلام ساعة أن اعتدى إليه ، فدخل في الدين على يديه نخبة من أسبق الصحابة وأخلصهم للنبي عليه السلام وأعظمهم أثراً بعد ذلك في قيام الدولة الإسلامية ، كعثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله ، وجعل لا يهدأ ولا يستريح حتى أدخل في دينه أمه وأباه وذويه .

وتدور حماسته لاعتقاده من إلحاحه على النبي أن يظهر بالمسلمين في نواحي المسجد وهم دون الأربعين عدداً ، ومن قيامه بينهم خطيباً يجهر بالدعوة إلى الله ، والمشركون مشربون ثائرون ، حتى أصابه من ذلك أدى شديد خوف عليه الموت منه ، وتركه المشركون وهم لا يشكون في أنه مات أو أنه مائت عما قريب . وتبدو هذه الحماسة من اتخاذ مسجداً لصلاته وتلاوته على قارعة الطريق ، يسمعه حين يقرأ كل عابر ، ويتوعده المشركون فلا يفرج من وعيد . ولما جاءه الرجل الذي أجاره من المشركين على أن يكتنم لإسلامه فخيروه بين الكتمان أو رجوع الذمة إليه ، لم يتردد في رد دمه وقال له : فإني أرد إليك جوارك ، وأرضى بجوار الله عز وجل

ورجل مطبوع على سماع الحق وتصديقه والدعوة إليه والحماسة له غير عجيب أن يسرع إلى العقيدة الجديدة هذا الإسراع .

والى هذا كان قريباً من السليقة الدينية التي تتراعى في مكاشفة العيب واستطلاع الرؤى والهواتف والفتاح النفس لإشارات الإحياء والاستيحاء ، ويروى عنه أنه رأى قبل البعثة وهو بالشام رؤيا تنبئ بقرب ظهور النبوة في البلاد العربية ، ويعرف عنه على التحقيق أنه كان يعبر الرؤيا بين يدي النبي عليه السلام ويستأذنه في تفسيرها ويحتفل هو بما يراه في منامه

والى هذه القرى من الإيمان بالعيب كان لطيف الحس خاشع النفس عظيم الرفق والمودة ، لا تترس على قلبه تلك العظيمة التي تغلق أبواب القلوب وإن تفتحت الأدهان ، فكان حشوعه يكيه وفرحه يكيه ، وسليقته الدينية كاملة لا يعوزها إلا القس الذي يدمسها ، فتصم ثم لا ينطق لها صباء

وكان مع الصدق وحماسة العقيدة ومقاربة العيب ومروحياته ولجأواه بليغاً متدوفاً للإلاعة ، كثير الرواية للشعر والاسترواح للكلام الحسن الفصيح ، فكان في زمرائه لكلام للتنبيين غضب تلمح فيه عيفان^(١) الدوق البليغ كما تلمح فيه عيفان المؤمن الناقم على الصلال : سمع فقرات من قرآن مسلمة الكذاب فما عثم أن اسدر قارئه مشعشراً من سخره وإسفه . «ويحكم إن هذا لم يخرج من إل^(٢) ولا يرا» .

ولا جرم يكون هذا الدوق المستقيم سبباً قريباً بين صاحبه وبلاغة القرآن وبلاغة النبي عليه السلام

إلا أن سبب الأسباب جميعاً هي التقريب بين الصديق وبين الدعوة المحمدية هو ذلك السبب العال على كل ما ذكرناه ، لأنه يترح بأطوار نفسه ويصبغها بصبغته وينحو بها أبداً في منحاه ، ويعنى به الإعجاب بالمطولة ، ذلك الإعجاب الذي نحسه ملائكة لأخلاقه ومفتاحاً لشخصيته كما فصلناه في غير هذا الباب .

فالرجل المعجب بلبطونة يعرف بطله ، ثم يشق به ، ثم يرتقى بالثقة إلى ما فوقها وما هو أمكن منها ، لأن الثقة استناد إلى وثيقة تدعو إليها على حسب ما فيها من بيسانها وبراهينها ، أما الإعجاب فهو الرعدة في الثقة وكراهة التحول عنها ، هو البحث عن الثقة والتدادها إذا وقف الوثائق عند الانتظار أو مجرد التأمين والموافقة بعد الانتظار .

وقد تواترت أنباء مختلفة بصداقة أبي بكر للنبي عليه السلام قبل الدعوة المحمدية بسنين ، وذكر المؤرخون الثقات أنه كان معه عليه السلام حين ذهب في صحبة عمه إلى الشام واجتمع بالراهب بحيرا وسمع منه ما سمع عن الدين والبشارة بالنسوة . وقد شك بعض المؤرخين من الأوربيين في اتصال المودة بين الصفيين قبل الدعوة المحمدية بزمن طويل ، إلا أن الدليل الذي يُعنى عن وثائق التاريخ أن أبا بكر كان باتفاق الأقول أول المستجيبين لدعوة محمد من غير

(١) العيفان الغور وفكرهية

(٢) إلّ العهد والخلف .

أهله ، ولن يكون ذلك بغير معرفة سابقة بين الرجلين حببت إلى النبي عليه السلام أن يبدأ به ويترقب منه الإصغاء إليه ، وأيسر ما يستلزمه ذلك السبق إلى الإسلام أن يكون أبو بكر معروفاً بصفاته لمحمد وأن يكون محمد معروفاً بصفاته لأبي بكر . فلما سمع دعوته سارع إلى تصديقه وهو معجب به وباستقامة طبعه ونقاء سيرته وبلاغة حديثه ، وأعداه على التفرقة بينه وبين خصومه ، والتميز بينه وبين منكريه أنه كان نسبة قريش لا يفوته مغمز من مفاخرهم قديمها وحديثها في الأنساب والأخلاق ، ومحمد عنده مطهر من كل ذلك براء .



من جملة ما تقدم تبين لنا سهرلة انجاء الصديق إلى الدعوة المحمدية ، سواء من ضعف العقبات في طريقه أو من قوة الدواعي التي تجذبه إليه ، فقد اجتمعت هذه وتلك على تفسير تلك الأعجوبة النادرة في تاريخ الدعوات الجديدة : أعجوبة رجل في سميت الرجولة يقال له : تعال إلى دين جديد غير دين آبائك وأجدادك ، فلا يتواصى ولا يتردد في إجابة الدعوة ، وما هو إلا أن سمعها حتى يلبسها وينقطع لها ، ويصبح من أقوى دعايتها بعد صاحبها

ومن تمام الجلاء في تفسير تلك الأعجوبة أن نفهمها على حقيقتها في جميع أحوالها وملاساتها ، وأن نفهم الفرق بينها وبين «بظايرها لو جرت في عصرنا الحاضر ، أو بيئة أخرى غير البيئة التي جرت فيها . .

فحين نسمع بقصة أبي بكر وتصديقه السريع للدعوة المحمدية فنحضر في أذهاننا رجلاً من المسلمين أو المسيحيين أو الإسرائيليين في عصرنا الحاضر يقال له : تعال إلى دين غير دينك ودين آبائك وأجدادك فيجيب الداعي لتوّه وساعته كأنها تحية وجوابها .

وهي أعجوبة عندنا يوشك أن يابها العقل وأن تمتنع على التصديق ولكن إسلام أبي بكر لم يكن من هذا القبيل ، ولم يكن الدين الذي تحول عنه كالدين الذي يؤمن به المسلم في هذه الأيام .

لم يكن دين المشركين من قريش ديناً من أديان الروح وعقيدة من عقائد الضمير

لم يكن له شأن بالحياة الصالحة ولا بالحياة الناقية ولا بالنظر إلى الكون في أسرار خلقه ولا بالجماعة الإنسانية في قوام أمرها ومناط الخير والشر فيها والصالح والفساد بين رجلها ونسائها .

ولم يكن التابعون له ينظرون إليه هذه النظرة أو ينظرون هذه النظرة إلى دين آخر أو عقيدة أخرى .

ولكنهم كانوا ينظرون إلى عقائدهم نظرتهم إلى الموروثات للألفة والعرف المنفق عليه ، أو نظرتهم إلى العادات التي ترتبط بها مصالح العيش ومصالح السيادة والجد . وكان يعر عليهم أن يقال لهم : إن آباءهم وأجدادهم هالكون ، وإن الدين الذي بشأوا عليه وماتوا دين مسحف ومهانة وصلال . فكانوا في ثورتهم على الدعوة الجديدة أشبه الناس بأبناء القرى والمدن الذين ينورون على رجل يبتدع في الولائم والأفراح وخناير بدعة بحالف ، المكوف ويهدد مصالح الوجهاء أو ما يسمونه « شرف الأسر » وسير البلدة وعادات الناس ، وتهدد مع تهديدها الوجهاء مصالح العاميين في شئون الرواج وشعائر الوفاة ، وما إلى ذلك من الرسوم والعادات .

وكان المشركون لا يبالون أن يخرج على دينهم من يحرج عليه ناجيًا بروحه حاليًا بنفسه بيده وبين يده . فعاش بينهم اليهود والمسيحيون والمتهودون والمتنصرون وهم في دعة وأمدن إلا من أدى لأقارب المخالفين لهم في قبيل من الأحيان ، وإنما كانوا يشعرون على الدعوة العامة التي تبدل العرف كله ، وتخرج الجماعة من مألوفاتها وقواعدها التي استقرت عليها فكانوا الثائرون في وجه الدعوة المحمدية من مشركي قريش بين رجل من ثلاثة لا يعسوبهم إلى رابع رجل صاحب سيادة تتصل صيادته بقاء الأمور على ما هي عليه ، ورجل من الأدباء الذين لا يعقلون ولا يحسون الظلم والفساد ولا يفعلون إلا ما يأمرهم به السادة المسيطرون ، ورجل لم يصغ إلى الدعوة الجديدة حتى الإصغاء ، ولم يتسع له الوقت للتعرف بينها وبين العرف القديم .

وما عدا هؤلاء جميعًا فهو قريب من الدعوة المحمدية لا يمنعه ما يع أن يتجه إليها متى أصاب الوجهة التي تهديه في طريقه ، وليس معنى ذلك أن التعصب

على العرب الجاهلي كان من الهيات الهيئات أو كان أهون من التغلب على سائر العقائد والأديان ، فليس أصعب ولا أعزل في الحقيقة من التغلب على عرف ترتبط به مصالح السيادة وعبادة الدهماء وتراث الأجداد والآباء ، وإنما معناه أن الأمر لا يهم جميع المشركين ما لم يكن واحداً من أولئك الثلاثة ، وهم ألوف وألوف

وأبو بكر رضي الله عنه لم يكن واحداً من هؤلاء

وكان مع هذا رجلاً يحس بالروح والضمير ، ويحس الخواء الذي تتركه العقائد الجاهلية في حياة الروح والضمير

وقد عفاه الله من سبب قوى من أسباب الثورة على الدعوة المحمدية بين المشركين المعتزين بالآباء والأمهات .

« أليس على ضلال ؟ أليس مع الهالكات ؟ » .. تلك حادثة كانت تهجس في نفس المشرك من قريب فيغضب ويثور ويحسب الدعوة الجديدة هي عداد السباب الموجه إلى أقرب الناس وأعزهم عليه

أما أبو بكر فقد عفاه الله من ذلك في إبان الدعوة المحمدي ، لأنها صهرت وأبوه وأمه بقيد الحياة مفتوح لهما باب النجاة ، فما زال بهما حتى دخلتا معه في دينه ، وأطمأنت نفسه على أبيه وأمه وبنيه

وفيما عدا هذا قيل له : دح هذه البقايا الفاسدة وأقبل ومن يحب على دين جديد فيه الخير والنصلاح والهداية إلى خالق الأرض والسماء .

علم لا بترك تلك البقايا الفاسدة ؟ ولم لا يقبل على الدين الجديد ؟

به لا يحب بقايا الجاهلية ، ولا يربطه بها شح ولا كبرياء ولا ذلة ولا عباد ، وإنه ليسمهم ويعقل ويحب الخير والنصلاح ويحس في قلبه حيثبان الروح والضمير ، وإن الذي يدعوه لكرم حلیم صادق قوم حسب إلى النفس مبراً من العيب يحق له أن يجاب ، وإنه لا يخاف لأنه شجاع ، ولا يقابل الأمر بقنور المستعجب لأنه راح حتى العوادم مطبوع على الحماسة لا يؤمن به والإعجاب من يستحق عنده الإعجاب .

فالمعجب أن يُدعى إلى تلك الدعوة فلا يجيبها أسرع ما يكون الجواب ، وليس العجب أن يسرع إلى إجابتها كما أسرع فأجاب

وهكذا يبين لنا في إسلام أبي بكر كما بان لنا في إسلام كل رجل دى بال من السابقين إلى الدعوة المحمدية أنها دعوتهم إليها بأسبابها المعقولة فاستجابوا إليها بأسبابهم المعقولة التى قوائم كلاً منهم أصدق الموءمة ، ولا تحوج أحداً من المدللين والمفسرين إلى الخوارق المكذوبة ، أو إلى تفسير الأمر بالوعد والوعيد ورغبة الجنة ورهبة السيف .

وكما قلنا فى كتابنا « عقريه محمد » إن الأقوياء لم يُسلموا خوفاً لأنهم أقوياء ، وإن الضعفاء لم يُسلموا خوفاً لأن الإسلام عرصهم للقتل والعذاب والسيوف ، المشركين الذين لهم عليهم سياحة وطفيان ، « وما كفر الذين كفروا الزهد ولا شجاعة فيقال : إن الذين سقوهم إلى الإسلام قد فعلوا ذلك لشعف بلذات الحمة وجن عن مواجهة القوة ، ولكمهم احتلفوا حيث تُطلب طهارة السيرة وصلاح الأمور . فمن كان أقرب إلى هذه الطلئة من غنى أو فقير ومن سيد أو مستعبد فقد أسلم ومن كان به زيف عنها فقد أبى ، وهذا هو الفيصل القائم بين الفريقين قبل أن يتجرد للإسلام سيف يدود عنه ، وبعد أن تجرد له سيف تهابه السيوف ، وما يقسم الطائفتين أحد فيضع أبا بكر وعمر وعثمان فى جانب اللذة والخوف ، ويضع الطاعة من قريش فى جانب العصمة والشجاعة إلا أن يكون له هوى كهوى الكفار . . . »



كان الصديق إذن أول رجل من شرفاء العرب دان بالإسلام بعد نبيه ^{الطاهر} دان به سريعاً إلى دعوته لتلك الأسباب التى تليق به وتليق بالدعوة المحمدية ، وكتب له فى اللحظة الأولى أن يكون ثانى اثنين حين يكون النسي هو أول الاثنين . فكان ثانى اثنين فى الإسلام ، وثانى اثنين فى عار الهجرة ، وثانى اثنين فى الظلة التى أوى إليها النبى يوم بدر الذى لا يوم مثله ، وثانى اثنين فى كل وقعة من الوقعات بين المسلمين والمشركين ، وأقرب صاحب إلى النبى فى شدة الإسلام ورحائه ، وفى سره وجهه ، وفى شتونه نفسه وشتون المسلمين .

ومن اللحظة الأولى وهب للإسلام كل ما يملك إنسان أن يهب من نفسه وآله
وبنيه . فاحذ أمه إلى النبي لتسلم على يديه وهي بين الحياة والموت ، وجاءه بآيه
بعد فتح مكة ليسلم على يديه وقد جعله الشيب رابيض رأسه كأنه ثَغَامَةٌ (١) .
وحمل ماله كله وهو يهاجر في صحبة النبي يؤثر به الدين على الآل والبنين

والرويات في توجيه الدعوة إليه مختلفات منها ما يؤخذ منه أن النبي ﷺ
وجه الدعوة إليه خاصة فساها ، ومنها ما يؤخذ منه أنه ﷺ قصد الناس في
المسجد بالدعوة العامة فاتصل نبيها بأبي بكر وجاءه يسأله

يا أبا القاسم ! ما الذي بلغني منك ؟

فسأله النبي : وما بعك عني يا أبا بكر ؟

قال : بلغني أنك تدعو إلى توحيد الله ، ورعيت أمك رسول الله .

قال ، نعم يا أبا بكر إن ربي جعلني بشيراً ونذيراً ، وجعلني دعوة إبراهيم ،
وأرسلني إلى الناس جميعاً .

فما أبطأ أبو بكر أن قال : والله ما جريت عليك كدناً وإنك لخلق بالرسالة
لعظم أمانتك ، وصلتك لرحمك ، وحسن فعالك . فذكر فأنى مبيدك

والصدق والأمانة وصلته الرحم وحسن المعال صفات يفهمها أبو بكر لأنه
يحبها ويتصف بها ويحب أهلها . فهو صادق أمين رحيم حسن الفعل ، وتلك
أقرب الآيات إلى نُبِّ قلبه ، وهي أولى الآيات بالتصديق عند الصادقين
المصدقين ، فمن الجائز أن تخدعت الخوارج وليس من الجائز أن يحدعنا من
يصدق ويرى الأمانة ، ويستقيم على سوء الطريق في فعاله وحصاله

وأصبح الإسلام منذ تلك اللحظة ديناً عند أبي بكر يقابل الدنيا بما وسعت
من خيرات وطيبات . أصبح عنده غنيمة يفتديها بكل غنيمة يضمن بها المرء من
حياة أو آل أو ذرية ومال ، ولو قاسه بمقياس دينا . لقد كان الإسلام بلبّة عليه لا
يطلبها عقل ، ولكنه قاسه بمقياس دين فعمم أنه أريح الربيعين وأرشد الراشدين .
طلبه ديناً وكفى قصص فيه على ما يجزع منه طالب الدنيا . وبأبي أن
يستهدف له أو يشارفه من بعيد .

(١) الثغام بيت جهلى ورقه كورق الرمحيين ، إذا بيس شبه الشيب به

كان المسلمون دون الأربعين يوم أشار على النسي أن يجتمعوا في المسجد ويجهروا بالدعاء . فلما وقف بينهم في المسجد يدعو إلى الله ورسوله وثب عليهم المشركون يضربونهم ويؤذونهم ويوسعونهم إهانة مع الضرب والإيذاء ، وتصدى عتبة بن أبي ربيعة لأبي بكر فجعل يصربه بعينين مخصوفين حتى ورم وجهه . ونحفي على الناظر إليه مكان أنفه . وتسامع أهله من بني نعيم فأقبلوا يتعادون ويُجلون المشركين عنه ثم حملوه في ثوب إلى بيته وما يشكون في موته وصاح منهم صائحون في المسجد والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة

ثم أحاطوا به يكتمونه حتى أفاق وأحاط ، فكان أول ما قام به وهو في تلك الحال : ما فعل رسول الله ؟

فلاموه وحرقوه ، وسألوا أمة أن تطعمه أو تسقيه شيئاً يرد إليه نفسه فأبى أن يأكل أو يشرب حتى يعطى ما فعل رسول الله

قالت . والله ما أعلم بصاحبك

قال . فادعني إلى بنت الخطاب فاسألها عنه .

فلما جاءتها أنكرتها وأشفقت أن تكون عينا من عيون المشركين عليها وعلى رسول الله . فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله ثم عرضت عليها أن تذهب إلى أبي بكر لتسمع منه وتطمئن إلى ماله فوجدته صريعاً ذليلاً قد رُج به الألم ، فعدها الإسفاق فأعلنت بالصياح وهي تقول . إن قومًا بالوا منك لأهل حق . وإني لأرجو أن ينتقم الله لك

فما زاد على أن كرر سؤاله الذي لزمه مد أذنك من عشيته ما فعل رسول الله ؟

قالت وهي لا تزال حذرة من أمة هذه أمةك سمع ا

قال : لا عين عليك منها .

قالت : سالم صالِح ا

فلم يكفه ذلك حتى يراه بعينه ، وسألها أئى هو ؟ فأعلمته بمكانه من دار الأرقم بن أبي الأرقم ، وأحب أن يذهب إليه ، وكأنه أحسن من أمه عاتكة في

خروجه وهو بملك الحال ، حتى يتبلع بشيء وينزق شراباً يرويه ويقويه ، فأقسم
لا يذوقن طعاماً ولا شراباً أو يرى رسول الله .

وأكبرت المراتان لمعطوفان حبه بصديقه ونبيه ، فأمهنتاه حتى هذأت الرجل
وسكن الس ، وخرجتا به يتكوى عليهما ولا يقدر على حمل نفسه . ثم دخلتا
به على رسول الله وهو يملك الحالة فاكب عليه يقبله ، ورق الرسول لصديقه
وصفيه رقة شديدة ، فقال الصديق الصفي بأبي أنت وأمي اليس بي إلا ما
نال الفاسق من وجهي ، وهذه أُمى برة بالذبيها فادعها إلى الله ! وادع لها عسى
أن يستنقذها بك من النار .

ولست بين المشركين يستهين بالخطر على نفسه ، ولا يستهين بحظر بصيب
النبي قل أو كثر حيثما رآه واستطاع أن يدود عنه العادين عليه ، وإياه ليراهم
أخذين بتلاييه فيدخل بينهم وبينه وهو يصيح بهم : « ويلكم ، اتقتلون رجلاً أن
يقول ربى الله ؟ » فينصرفون عن التمس ويحسون عليه يصربونه ويجذبونه من
شعره فلا يدعونه إلا وهو صديق .

ولما أذن له النبي في الهجرة إلى الحبشة بعد ما ابتلى به من عنث المشركين
غضب لرحلته لأكرمسون من القوم ولحق به ربيعة بن فهيم المعروف بابن الدغنة
فقتل له . إن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يُخرج . إياك تُكسب المعدوم ، وتصل
الرحم ، وتعمل الكل ، وتقرى الصيف ، وتعين على نوائب الحق ، فإذ لك جار .
ارجع واعبد ربك بملكك .

وظاف بن الدغنة عشية في أشراف قريش يبلغهم أنه أجاز أبا بكر فعرفوا له
جواره وقالوا له : مره فليعبد ربه في داره يصلى فيها ويقرأ ما يشاء ، ولا يؤذيها ولا
يستعلن به ، فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبنائنا .

إلا أن أبا بكر ربي بهاء الدار مسحداً يصلى فيه ويرتل القرآن ، ويستمع له
النساء والأطفال فيجتمعون إليه منهم من يسحر ومنهم من يعجب ويسأل عن
الخبر . ففرغ المشركون وطلبوا إلى ابن الدغنة أن يهيه أو يسترد منه ذمته ، فأبى
أبو بكر أن ينتهي عن الجهر بالصلاة والقراءة ، وقال لابن الدغنة : فإننى أرد إليك
جوارك وأرعى بجوار الله عز وجل !

وبقى بمكة طوال مقامه بها يعمل لدينه ولنبيه ولا يعمل لنفسه إلا ما ليس
 به عني من طلب ادعاش ، يدعو وحوه الناس ويعرض الأمر على القبائل ،
 ويُغنى في الدعوة بصلاح سيرته ورحابة قدره ويقين الناس باستقامة قصده ، ما
 قل أن يغنيه دليل العقل أو نقاش الجدل والملاحاة . وكان يتعرض للأذى فلا
 يعيه أن يتقيه كما يعنيه أن يقبى منه السيئ وسائر المسلمين . فكان يُعين الفقراء
 ويُعتق الموالى الذين يُسامون العذاب في سبيل الله ، أو يحمل المغارم ويهيئ لمن
 أراد الهجرة وسائلها ، ولا يكون عمل من الأعمال ينفع الدين الجديد ويسمع أهله
 إلا وله سهم فيه .

ثم كانت هجرته إلى المدينة فكانت أخطر هجرة أقدم عليها مسلم من أهل
 مكة . إذ كان كفار قريش يقيمون نكل مهاجر من الأرصاد والعيون كفاء قدره ،
 وكانت أرسادهم وغيوبهم على السي أكثر ما استطاعوا من غدة وكيد وحيلة
 فكانت الهجرة في صحبة النبي شرفاً من شرفين ، لا بدري المرحح بينهما أيهما
 أحق بالإعظام إما مجازفة بالحياة ، وإما يقين لا يحاصره الرب أن السى ناج في
 حماية ربه ، ولو كان في الهجرة ما فيها من فراق الموضع أو الهجوم على فراق
 أرباب منه وأقربى ، وهو فراق الدنيا .

فتلقى أبو بكر الإذن بهذه الهجرة كما يتلقى البشارة بالسلامة قالت به
 عائشة رضي الله عنها « ما شعرت قبل ذلك أن أحداً يبكى من المرح حتى
 رأيت أبا بكر يبكى حين أذن رسول الله ﷺ بهجرتة »

وقالت بنته أسماء رضي الله عنها « لما هاجر رسول الله ﷺ ، وهاجر أبو بكر
 معه احتمل أبو بكر ماله كله حملة آلاف درهم أو ستة فدخل عينا حدى
 أبو قحافة وقد ذهب بصره ، وقال : والله إني لأراه قد فجعكم بماله كما فجعكم
 بنفسه قلت : كلا يا أبت ، إنه قد ترك لنا حيراً كثيراً ، وأخذت أحجاراً
 فوضعتها في كوة البيت الذي كان أبى يضع فيه ماله ، ثم وضعت عليها ثوباً ،
 ثم أخذت بيده وقالت : يا أبت ، صعد يدك على هذا المال فوضع يده عليه وقال
 لا بأس إذا كان قد تراء لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاع لكم ولا والله ما
 ترك لنا شيئاً ، ولكنى أردت أن أسكن الشيخ »

وكذلك أقبل الصديق على الإسلام وهو عالم بالذى هو مفضل عليه لم يقل له أحد ولا قال هو لنفسه إن الأمر أهون مما توقع ، وإن البلاء بعقدته التى تحول إليها أحف مما وجد ، فلم يجد نصيباً وكان يرجو الراحة ، ولم يجد عُرثاً وكان يرجو المنفعة ، ولم يجد عداء من قومه وكان يرجو منهم المودة ، ولم يجد حظراً وكان يرجو السلامة ، وإنما دخل فى شىء يتوقع ما هو ملاقيه فيه ، ويراها دون حقه من المصايرة والحفاظ والاحتمال ؛ لأنه الدين . لأنه الحياة العسية والحياة الباقية . لأنه الحق ودونه الباطل ، والهدى ودونه الضلال

فما أقبل إنسان قط أصدق من هذا الإقبال ، وما تأهب إنسان قط لبلاء فى سبيل ضميره وربه أعظم من هذه الأهنة ، وما تفسد الصديق عبد إنسان قط أغلى من هذه النفاسة . فهى سلامة النفس وسلامة الأبناء والأبناء وسلامة المال والعتاد وسلامة الدنيا بأسرها يعلقها بكلمة صديق من رجل صادق ، وإن أساساً لمصدقون غاية الصديق ثم لا يخاطرون فى سبيل الصديق برزق يوم ولا براحة ساعة .

نه الصديق .

وما وصف بكلمة واحدة هى أجمع لخلائقه من كلمة الصديق ولقد رأينا أساساً من الناقدين يستنكرون على عربى فى جاهلية أن يقوم الهداية الدينية بهذه القيمة التى لا تملوها قيمة ولكنهم محططون .

لأن العربى الجاهلى عرف « الحق » وعرف بيع الحياة فى سبيل « الحق » كما يراه . حق الحوار أو حق العرض أو حق الشرف والدمار وأبو بكر حاصلة كان من يوعون الحقوق ويكملونها لأهلها ، وكان من يكرهون البعى ويقيمونه على أهله .

مإذا عرف « الحق » الأكبر فعبر عجيب أن يراء هذه الرعاية وأن يكفله هذه الكفالة ، وهو مهياً لعرفاته بكرم الخليفة وطيب النصيحة واستقامة الفطرة وصفاء القرينة .

وهد عاش أبو بكر في زمن كان عقلاؤه من كل أرض يتطلعون إلى هداية من السماء ، ويحيل إليه أن انتظار الهداية من السماء لم يطل في زمن من الأزمان ، ولا ميعا الزمن الذي يعم فيه الفساد وتغييه حيلة الإنسان ، وحسما أنما بعد الإسلام رأينا أناسا يترقبون « المهدي » الذي ينشر العدل كلما عم الخور ، ويأمر بالعرف كلما قسا المنكر ، ويهدي إلى سواء السبيل كلما استحكم الضلال

وقبل البعثة ، لمحمدية كان أناس ينتظرون الهدى من نسل داود أو ينتظرونه من نسل إسماعيل بن إبراهيم .

وسمع أبو بكر ما سمع من هداية رحلته إلى اليمن ، ورحلته إلى الشام ، وفي حديثه مع ورقة بن نوفل ، وحديثه مع المنكرين بطلان الجاهلية والمستشرقين إلى كل نور جديد .

وهذا محمد بن عبد الله يدعو دعوة إبراهيم : دعوة الأب الأكبر الذي يشعل العرب جميعا ، ومن فوقها دعوة الله التي تعم جميع الناس

فَمَنْ أُولَىٰ مِنْهُ بِالْدَّعْوَةِ ، وَمَنْ أُولَىٰ مِنْهُ بِالتَّصْدِيقِ ؟

إنه امتشاح حلقه القوم فهده ، وإن مشورة العقل وحدها لتهديه هذه الهدية ، حيثما وزن وقابل فأحسن موازنة والمقابلة بين جميع ما ينتظم فيها من شئون ذلك الزمان .

كان أبو بكر في اهتدائه إلى الإسلام هو أبو بكر في نشأته وسبقته وجملته أحواله وأحوال قومه وعهده .

وكان أبو بكر في إسلامه هو أبو بكر فيما وصف به وفيما جد عليه من إيمان المصدق بدينه وحماسة العجب ببطله .

كان إسلامه إسلام الرجل الكريم السمح الوحد . يستمسك بالمصدق والتصديق ويخلص في الإعجاب بالطل الذي هداه إخلاصا لا شية فيه . فهو يلين في كل حالة ويشد في حالة واحدة هو فيها أشد الأشداء : مرجعها إلى كل ما اتصل عنه بقوة التصديق وقوة الإعجاب .

قال بعد مبايعته باخلافة ، « إنما أنا متبع ولست بمبتدع » « أجمع إسلامه
أجمع صفة وأحسنها في هذه الكلمات

وربما عرّض له من الأمر ما ليس يتضح فيه طريق الاتباع ، فيخرج إلى الناس
يسألهم ثم يقول . « الحمد لله الذي جعل حيث من يحفظ علينا سنة نبينا »
فلا يبتدع إلا بعد استقصائه كل مرجع من مراجع الاتباع .

وهي هذا هو شديد غاية الشمة ، بعيد من اللين والهوادة غاية المعد ، وهو
الرحل الذي انسم في حياته كلها باللين والهوادة .

فتصديق المؤمن وإعجاب المحب يبطله العزيز عليه ، هما تفسير كل شدة
يشتدّها الصديق الحليم للودود

هو شديد في تيسير جيش أسامة لأن النبي ﷺ ولاه وأمر بتسييره ، وما
يكون له أن ينزع رجلاً استعمله رسول الله ﷺ ولو تحفظته الدثاب ولم يبق في
القرى أحد غيره » .

وهو شديد في حرب الردة ، لأنه لا يترك عقلاً كان رسول الله ﷺ يأحده من
المرتدين .

وإذا رأيناه يتردد بين الهوادة والشدة في محاسبة بعض الناس فالشدة التي
مرجعها الترام جادة الرسول والاقتداء بقدوته في كل شيء هي أقرب التفسيرين
إلى فهم عمله ، وهي أغلب في طبعه من اللين والهوادة ، على اشتهاره بهما في
كل ما عدا ذلك

فالهوادة ليست هي التي تفسر ما عمله في ترك جزاء خالد بن الوليد على
البناء بامرأة مالك بن نويرة ، والبناء ببنت مجاعة في حرب بني حنيفة ، وتوزيع
الأموال وتأخير الحساب ، وإنما الذي يفسر لنا هوادته معه أنه سيف من سيوف
الله ، ولا يعزل أبو بكر من استعمله الرسول وله سدوحة عن عزله .

ويتبين لنا مناط الشدة واللين عنده في جنابة واحدة استصغر فيها العقوبة على امرأة واستكبر العقوبة نفسها على امرأة أخرى ، وذلك إذ كتب إليه ابنها جر بن أبي أمية الخزومي يقول له : « إن معيشتين تغت إحداهما بثلث رسول الله ، وتغت الأخرى بثلث المسلمين ، فقطع يديهما ونزع ثيابهما لتكفا عن الغناء . فخطأ أبو بكر لأن الأولى كانت أحر بالقتل ، وأن الثانية كانت أحر بالصنع . . . وأوصاه أن يقبل الدعة وأن يحذر المثلة » فإنها مأثم ومُثَرَّة إلا هي قصاص »

ففي تعظيم النبي كل شدة قليلة ، وفي أمر غيره كل صفح جائز مستحب محمود ، وليست هي المحبة التي يعوزها التفكير قد فرقته هذه التفرقة بين العقابين ، لأن هجو النبي قدح في لباب الدين وأمن النظام ، وهجو المسلمين وزد قد يأتيه المسلم في خلاف بينه وبين قومه ، ولكنها على هذا حادثة قد عرضت لما طبع أبي بكر في حالتيه : لين وهوادة ، وإعظام لا لين فيه ولا هوادة ، وإنما هي الشدة كأشد ما تكون



ورعا تهيب الأمر فيه نفع لا شك فيه إذا لم يسبقه النبي صلى الله عليه وسلم إلى صنعه أو صنع مثله ، لفرط اتقائه أن يصنع ما ترك أو يترك ما صنع ، كما تهيب جمع القرآن في المصحف حين أشار به عمر ، فقال : « كيف أقفل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » ثم « مستصوب جمعه لما فيه من خير

مسموحة أبي بكر كانت طبيعة فيه لأنه طبع على الرفق والأناة والأخذ بالحيلة واستبقاء المودة .

وشدة أبي بكر كانت طبيعة فيه ، لأنه طبع على تصديق من هو أهل لتصديقه ، والإعجاب من هو أهل لإعجابه ، ولن ترى شدة في إنسان كشدة الرجل السمع في تنزيه صفيه وحببيه وموضع إعجابه ، ولا حرصاً في إنسان كحرصه على القدوة بذلك الصفي الحبيب المحب له ، واجتناب التحلف عنه والخيد عن طريقه .

وفيهما عدا هذه الشدة لم يكن أبو بكر إلا حليماً غالباً ورحمة عالبة ؛ ولم تنفرج أمامه طريقان : إحداهما إلى العفو ، والأخرى إلى العيش إلا أخذ بالأولى وأعرض عن الثانية .

شاوره النبي ﷺ في أسرى بدر فقال : « يا نبي الله ؛ هؤلاء بنو النعم والعشيرة والإخوان ، وإنى أرى أن تأخذ منهم الغدية ، فيكون ما أخذنا منهم قوة ، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً » .

وشاوره حين اجتمع قريش لصدته وصد المسلمين عن البيت فنادى بالناس : « أشيروا أيها الناس على أتروا أن أميل إلى عيالهم ودرارى هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ، فإن فاتونا كان الله قد قطع علينا من المشركين ، وإلا تركناهم محروبين » ٩ .

فقال أبو بكر « يا رسول الله ؛ خرجت عامداً لهذا البيت ، لا تريد قتال أحد ولا حرباً ، فسوجه له فمن صدنا قاتلناه » . . . يقاتل من صده عن البيت ولا يقاتل من لم يصد .

وشيع جيش أسامة فلم ينس أن يوصيه بالضعفاء وهو ذاهب إلى القتال : « لا تحونوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نحلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذهبوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لما كلة . وسوف تمرن بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم ياتونكم بآية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فادكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد سخطوا فاحصوا أوساط رؤوسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب فاخفوها بالسيف حقاً ، ائذفوا باسم الله »

وليس أكثر من الشواهد التي تشهدنا على قوة الدين هي نفوس من آمن به إلا أننا لا نعلم بينها شاهداً أصدق في الدلالة على تلك القوة من أن يدين المرء

نفسه بالدين أمام أعدائه ، كما يدينها به أمام إخوانه في اعتقاده . ومن شواهد ذلك في إسلام الصديق أنه كره المثلة بأعدى الأعداء في ميدان القتال ، فلما بعث إليه عمرو بن العاص برأس بسان بطريق الشام أنكر فحده أشد إنكاراً ، ولم يخفف من إنكاره قول حنيفة بن حاضره . إنهم يصنعون ذلك بنا ، بل قال : أيسئون بدرس والروم ؟ لا بحمل إلى رأس . إنما يكفى الكتاب والخبر .

فهو مسلم مع من يحب ومع من يكره ولو في قتال وهذا بلاع الدين القويم في نفس إنسان .



وهكذا كان مسلكه مع إخوانه وأعدائه ، وفي لينة وشدة ، وفي مفترق كل طريقين : إحداهما إلى الشدة وأحدهما إلى اللين . فقال النبي ﷺ يصفه ويصف عمر : « . إن مثلك يا أب بكر مثل إبراهيم قال : فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك عقور رحيم ، ومثلك يا أب بكر مثل عيسى قال : إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » . « . إن مثلك يا عمر مثل نوح قال : رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ومثلك مثل موسى قال : ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

ولم يكن عمل من أعماله في قضاء حقوق ديه وأداء فرائضه إلا يدل على هذه الخليفة التي اتصف بها في جملة حياته الإسلامية ، وهي المبادرة في كل ما فيه قدوة بالنبي ﷺ ، والأخذ بالحظيرة في كل ما يحتمل التعجيل والتأجيل .

سأله النبي : متى توتر ؟ قال : من أول الليل .

وسأل عمر : متى توتر ؟ قال : من آخر الليل .

فقال لأبي بكر : أخذت بالحزم ، وقال لعمر : أخذت بالعمرم

وصلاة الوتر كما لا يخفى تفصى من بعد العشاء إلى ما قبل الفجر ، ويرى
بعض الأئمة أنها فريضة ، يرى بعضهم أنها سنة يقتدى فيها بالنبي

وأبو بكر يسافر إلى أدائها ويأخذ بالحيلة محتاجة أن يضوته أوائها إذا
أجلها ، وعمر الشديدي على نفسه الوثائق من عريته يعلم أنها لن تقوته وأنه
لن يعلبه عليها غالب من الموم ، فيؤجلها إلى ما قبل الفجر ، وهو واثق من
أدائها في أوائها .

لهذا قال النبي لأبي بكر : إنه أخذ بالحرم وهو الأحوط ، وقال لعمر : إنه أخذ
بالعزم وهو الأقوى ، وعرف صاحبيه في هذه الفارقة الصعبة كما عرفهما في
كبار الأمور وصغارها .

وإن العقيدة التي تتسع لهدى الرحلى ولهدى الخلقين ولهدى العقلى ، لم
يكون كلامها إماماً فيها عظيماً في اتباعها ، لهدى عقيدة تتسع لكثير

الصدق والدولة الإسلامية

قلنا في كتابنا « عبقرية عمر » إن الدولة الإسلامية « تأسست في خلافة أبي بكر رضي الله عنه لأنه وطّد العقيدة وسيّر البعوث . فشرع السنة الصالحة في توطيد العقيدة بين العرب بما صمعه في حرب الردّة ، وشرع السنة الصالحة في تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث وفح الفتوح . فكان له السبق على حلّماء الإسلام في هذين العملين الجليلين » .

« إلا أننا نسمي عمر مؤسساً للدولة الإسلامية بمعنى آخر غير معنى السبق في أعمال الخلافة لأننا « أولاً » لا نجد مكاناً في التاريخ أبقى به من مكان المؤسسين للدول العظام ، ولأنك من جهة أخرى لا تربط بين التأسيس وولاية الخلافة في إقامة دولة كالدولة الإسلامية ، إذ الشأن الأول فيها للعقيدة التي تقوم عليها وليس لتتوسع في الغزوات والفتوح وعمر كان على نحو من الانحاء مؤسساً لدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين ، بل كان مؤسساً لها منذ أسلم فجهر بدعوة الإسلام وأدبه وأعرها بهيبته وعفوانه . . . » .

إلى أن قلنا : « إنه كان في يوم إسلامه أحداً في تشييد هذا البناء الذي تركه وهو بين دول العلم أرسخ بناء » .

والذي قلناه عن عمر في تأسيسه بناء الدولة الإسلامية قبل خلافته يصدق على أبي بكر بهذا المعنى منذ يوم إسلامه قبل سائر الصحابة وسائر الخلفاء .

ويكفي من ذلك أن نذكر الذين أسلموا على يديه من عظماء القوم وضعفائهم على السواء . فقد كان لإسلامه أثر بالغ بين السادة ، كما كان له أثر بالغ بين العبيد والأتباع ، وما هو إلا أن علم الوجوه والعلية من فضلاء قريش أن أبا بكر رضى الإسلام ديناً حتى كان للقدوة به حجة عندهم أقوى من حجة البيان والإقناع : إن الدين الذي يرضيه رجب كأبي بكر في صروته وصلاحه وشرفه واستعنائه واستقامة قصده وسلامة صدره لدين جدير بالاستماع إليه

والنظر في دعوته ، وإن النظر في دعوته وفيما بينهما وبين العقائد الخاهلية من
البؤس الشاسع لكاف وحده لكسب القلوب وتحويل الأذهان ، ولا سيما عند من
حلا من العرص في دوام العقائد الخاهلية وإحباط الدعوة الجديدة أو كل دعوة
جديدة كائناً ما كان حظها من الخير والقلاح .

فأسلم على يديه رهط من أكبر السادة وأكبر القادة في الإسلام ، أسلم على
يديه عثمان بن عفان ، والربيع بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي
وقاص ، وعثمان بن مظعون ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعبد الرحمن بن عوف ،
وعبد الله بن عبد الأسد أبو سلمة ، وحلد بن سعيد ، ومنهم من أسلم وهو يقع
أو شاب ناشئ كسعد والربيع ، فكنا فتوة بالإسلام حين جدد الجدد واشتدت
سواعده بسواعد فتياته الأبرار .

واشتري بهراً من العبيد امهقين ، منهم بلال بن رباح مؤذن النبي ﷺ .
وكان سيده يحرجه في حمارة العيظ فيطرحه على ظهره في بضحاء مكة ويصفي
بصحرة عظيمة على صلبه ويدعه وهو يقول : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر
بمحمد . فلا يزيد على أن يقول : أحد - أحد ، ويردها حتى يوشك أن يعيب
عن وعيه من ألم العذاب . اشتراه أبو بكر أو استبدله بما يساوي خمس أواق
دهباً فقيل له : لو أبيت إلا أوقية لبعناك ! وقال . ولو أبيتم إلا مائة أوقية
لأخذته ، ومضى في شراء العبيد والإماء بما يطله سادتهم من ثمن يغالون فيه
ليحجزوه ويدخلوا الندم على نفسه ، وهو لا يبالى ما يبدل من ماله وجهه لينقذ
أولئك الساكنين من أبدى المشركين ويريحهم من قسوة السادة المتجبرين . فكان
كسبه لقلوب الضعفاء أربح للإسلام وأجدر بسمعته ورحمته من كسبه قلوب
العنية الأعلام وأبلغ في التدبير والفضيلة من إقناع بتأخذ الحجة وإبلاغ بصادق
الكلام . ولعل الدعوة الجديدة كسبت بين الأمم بهذه الرحمة أضعاف ما كسبته
بهداية الشرفاء الذين اقتدوا به وذهبوا إلى النبي من طريقه

ولم يزل في كل عمل من أعماله منذ أسلم إلى أن تولى الخلافة مؤسساً لهذا
البناء الشاسع الذي كان هو أول من قام عليه بعد بانيه . فالدعوة الصريحة إلى
الإسلام في المسجد بمسمع من قريش ، والهجرة مع النبي من داره ، وبذل المال

في البعوث وغير البعوث ، وتيسير القدوة للمفتدين بإسراعه إلى التلبية والتصديق كما التجس الأمر واضطربت الأفكار ، ومحاربتة قريشاً بعلمه وإطلاعه على الأسباب كما حاربهم بحاله وسلاحه ومشورته ورأيه - بل كل ما عمل منذ أسلم إلى أن تولى الخلافة ، فهو في جملة ركن من أركان الدولة الإسلامية يجعله بالحق مؤسساً لها مشاركاً في بنائها ، بسطان العقيدة قبل سلطان الحكومة المسموعة .



ثم كانت البعثة بالخلافة .

وكانت بعثة أسامة بن زيد ، وكانت حروب الردة ، وكانت بعوث العراق والشام ، فقام على هذه المآثر الثلاث التي لا تقضى حقها من الإكبار كل ما قام بعد ذلك من بناء .

بعثة أسامة وما بعثة أسامة ؟ . يستصغرها بعض المؤرخين المحدثين ويقولون إنها من نوافل البعثات ، لأنها بدأت وانتهت بغير فتح وبغير ثمرة وبغير حظ كبير من الغنائم تلجئ إليه ضرورة من الضرورات وإنهم لمحطون .

وإن الصديق لعلى صواب .

ولقد يكون في صوابه إلهام أو تكون فيه رؤية وقصد مرسوم ، ولكنه سداد على كل حال ، ووجهة قوية هي أدنى الوجهتين إلى النفع والصلاح .

بعثة أسامة كانت العنوان الأول لسياسة عامة في الدولة الإسلامية هي في ذلك الحين خير السياسات .

كان قوامها كله طاعة ما أمر به رسول الله .

وكانت الطاعة - جد الطاعة - مناط السلامة وعصمة المعتصمين من الخطأ الأكبر في ذلك الحين .

وحيث يكون التمرد هو الخطأ الأكبر بالطاعة بل الطاعة الصارمة - هي العصمة التي ليس من ورائها اعتصام

وقد كان التمرد هو الخطر الأكبر في ذلك حين لا مراء :

كان النفاق يُطْلَع رأسه في مكة والمدينة ، وكانت القبائل المادية تتسابق إلى الردة في أنحاء الجزيرة ، وكان جند أسامة نفسه يود لو استبدل به أميراً غيره ، وكان أسامة أول من يشك في طاعة القوم بقاءه وشرقه أن يخلعه على البعثة أمير سواء

تمرّد ، أو نذير بتمرد ، فن كل مكان

وطاعة واجبة هنا حيث نبع التمرد ، أو لا سبيل إلى واجب بعد ذلك يطاع طاعة أو لا شيء .

فإن بقيت الطاعة فقد بقي كل شيء .

وها تسعف الصديق طبيعة هي أعمن الضائع فيه ، أو هي العبقريّة الصديقية في أوانها ، وعلى أحسن حال تكون هيا تسمعه القدوة القويّة بالبطل المحبوب .

وها يقول وقد حوّفه الخطر على المدينة والحيش يفارقها :

« والله لا أحلّ عقدة عقدها رسول الله ! ولو أن الطير تخطعتنا ، والسباع من حول المدينة ، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزّن حيش أسامة ! » .

كلمة لو قالها غير أبي بكر لكات كبيرة ، ولكن الذي يقولها أبو بكر وبنت أمّ أمهات المؤمنين .

فلا خطر إدد أكبر من خطر الاجترء على حق الصاعة في تلك الآونة ، ولو جرت الكلاب بأرجل البنات والأمهات .

ومن المؤرخين المحدثين من قال ما فحواء إن بعثة أسامة إنما أرسلت ثأراً لأبيه زيد الذي قتل في معركة مؤتة ، وإن قتله في تلك المعركة قد مات بقره ، أفما كان إرجاء البعثة من المستطاع وقد أدرك ثار القائد القتيل ؟

ومن المهاجرين والأنصار من كان يرى الرأي في بقاء البعثة بالمدينة بعد موت النبي ﷺ ، وفي مقدمتهم أسامة

ومهم من كان يرى أن يتقدم لقيادة من هو أسوأ منه وأخبر بفنون القتال ،
ومهم صمم على الخطاب .

أما أبو بكر فقد رأى العصمة - حق العصمة - في رأى واحد لا رأى قبله
ولا بعده ، وهو الطاعة في غير لى ولا هودة ولا إبطاء ، ولو لم يكن التمرد هو
الأمة المخدورة في تلك الآونة لقد كان غير الرأى أصوب ، ولكنه كان أفتها التي
لا آفة مثلها ، ثم لا حطر إن سلمت الدولة من شرها ، فلتكن الطاعة إذن هي
الصواب ، وهي الملاذ .

وقد ضرب المثل الأول في الصداقة التي أرادها فشييع البعثة وهو ماش على
قدميه وعبد الرحمن بن عوف يقود ديبته بجواره . فقال أسامة : يا خليفة رسول
الله والله ستركن أو لأترلى فقال والله لا تنزل ، والله لا أركب وما على أن
أغبر قلبي في سبيل الله ساعة .

ثم ستأذن أسامة قائلاً : إن رأيت أن تعيشي بعمر فافعل ، فعاد عمر يادنه
بإذن القائد الذي هو في مقام الطاعة هناك ، حتى على الخليفة وعلى أكبر
الصحابة من بعده .

ثم قال لأسامة اصبح ما أمرك به رسول الله ﷺ ولا تقصرون في شيء
من أمر رسول الله .

أفكان المؤرخون المحدثون على صواب في أمر هذه البعثة حين قالوا إنها من
الموافل بعد مقتل القاتل لريد أبي أسامة ؟

إنهم لعل خطأ في كل تقدير قدره ولو جازيناهم فحصرنا أعراض البعثة في
ذلك العرض الوحيد ، لأن مقتل قائد في معركة ليس بالحرمة الفردية التي
يعاقب عليها القاتل وحده ، وإنما المسألة هنا مسألة الجيش كله ، وهيبة الأمة
التي أرسلت ذلك الجيش وتمثلت فيه بقوتها ومناحة حوزتها ، فإن لم يقع في روع
الأعداء المقاتلين أن ذلك الجيش قوة تهاب وتنال حقها من الثأر فقد بطل
العرض كله من القتال .

وفي هذه البعثة بعينها ، ماذا كان يحدث لو أن قبائل عسان وقصاعة
استصعقت شأن المسلمين وفي أيديها الطريق بين بلاد العرب وبلاد الروم ؟

كل شيء جائز أن يكون .

وأول إعراء الروم بالهجوم ولهم عون من تلك القبائل ومن يجتمع إليها من المجترئين والمتحفزين ، ولما تفعدهم عن الاجترار والتحفز هيبة جيوش الإسلام .

ولقد أدرك أناس في عصر أبي بكر صواب الرأي في إنفاذ تلك البعثة بعد إنفاذها وعودتها . فشاع في الجزيرة العربية خبرها ، وروى مؤرخو تلك الفترة أنها كانت لا تمر بقميل يريدون الارتداد إلا تحوفوا وسكنوا : وقالوا فيما بينهم : لو لم يكن المسلمون على قوة لما خرج من عندهم هؤلاء .

فإذا كان بقاء أسامة بالمدينة جائزًا لدفع خطر ، فإرساله كذلك جائز لدفع خطر مثله ، وفازت الدولة بين هذا وذاك بدرس الطاعة ، وهو يومئذ ألرم الدروس .

ثم تكرر هذا الدرس في أوسع نطاق لأنه نطاق الدولة الإسلامية كلها في ذلك الحين ، وجاءت حروب الردة التي هي مفخرة أبي بكر الكبرى غير مدافع ، أو هي مفخرته الخاصة التي انفرد بها في تاريخ الدعوة الإسلامية بغير شريك . فكان « هو نفسه » كما يقول العربيون في تعبيراتهم حين يذكرون الأعمال التي تدن على صاحبها بجميع حصائصه ولباب شعوره وتفكيره ، وتبرزه على حقيقته التي لا تمارة فيها ، حلاقًا لأعمال أخرى قد تكون فيها هذه « الحقيقة » موضع التباس أو اختلاف .

ففي حروب الردة كان أبو بكر رضي الله عنه هو أبا بكر على سوائه وجلاته ، ولم يكن موقعه فيها غريبًا كما يسبق إلى الذهن للوهلة الأولى حيثما يحظر للناس أنه الرجل الرديع الرفيق ، وذلك الموقف أولى المواقف بالصلابة الصارمة والسأس الشديد

عصب الصديق رضي الله عنه في حروب الردة عصته التي لا بد أن يعصها ، وإلا فما هو بعاصب .

أثارته ردة المرتدين لأنها مسه في كل ما يُثْمِرُه ، وأصابته في كل ما يُعزِّه ويقار عليه

فهناك الصديق المحب لصديقه ، والمعجب الغيور على ذكرى بطله ، يشير أن يغدر القادرون بعهد ذلك الصديق وذكرى ذلك البطل ، ولما تمض له فى قبره أيام أو أسابيع .

وهناك المسلم « الصديق » الذى آمن بشارة النصر ولو كره الكافرون ، كما آمن من قبل بانتصار الروم على الفرس بعد بشارة القرآن فتخاطر على ذلك النصر بالمال ولحيثاق ، ولم يخامره الشك لحظة أنه الرابع لا محالة فى ذلك الخطار وكذلك غضب فى حرب الردة غضبة الواصل من الحق ، الواصل من الغلبة ، الواصل من العاقبة ، لأنه سمع البشارة السماوية ليصرون الله الإسلام على الدين كله ، فإذا حارب فى سبيل الإسلام فهو لا محالة على حق وهو لا محالة منصور

وهناك الرجل « الدقيق التكوين » يقابل بالاستخفاف فى أول خلافته وقد راض نفسه طوال حياته على المروءة والكرامة والوقار ، أنفة من الاستخفاف وكراهة للصغر والاستصغار ، فإذا بهم يستقبلونه بما أشاح عنه طوال حياته ، وإذا بالامر صريح بالمقال فضلاً عن صراحته بلسان الحال : هم يستكثرون عليه كيته أيا بكر فيكويه أيا الفصيل ؟ وأعوانه يردون عليهم ذلك الاستهزاء متوحددين : لترونة هذا أبا الفحول .

وهناك الرجل الذى فيه من وثاقة العزم ما قمع به ثورة الحجة وهى أصيلة فى تركيبه ، ومن كان له ذلك العزم فهو متجده حين يحتاج إليه ، وما كان محتاجاً إليه قط برأه استغنى عنه فى فتنة الردة ، وهى تقاضيه بالغضب المثير .

وهناك الرجل الذى كان مثلاً فى الاقتداء بالرسول حيثما سبقت سابقة يقاس عليها ، وقد سبقت هذه السابقة فى مريضة من فرائض الإسلام وإن لم تكن فريضة الركاة سبقت فى مريضة الصلاة ، وذهب أناس من المثقفين يعرضون على النبى إسلامهم على أن يعفيهم من الصلاة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إنه لا خير فى دين لا صلاة فيه » . وكذلك لا خير فى دين لا ركاة فيه ، فإذا جاء المرتدون يزعمون أنهم مسلمون يقبلون فرائض الإسلام ولا يقبلون ركاة فليس أبو بكر بالذى يقبل منهم ما يزعمون .

إنما كان أبو بكر إذن أصدق ما كان لنفسه وسرائر مزاجه يوم قابل الردة بدرس الطاعة التي لا هودة فيها ، ولم يكن في باطن الأمر عريب عن المعهود فيه ، وإن لاح في ظاهر الأمر أنه جاء بالعريب من رجل وديع رفيع .

ولقد أكثر المؤرخون من الكتابة عن حروب الردة ما لم يكثروا قط في حوادث من حوادث صدر الإسلام ، وكانوا على حق حين وازنوا بين دعوة الإسلام الأولى هي مقاومة الشرك ودعوة الإسلام الثانية في مقاومة الارتداد وإنما كانت العلوية على فتنة المرتدين فتحاً جديداً لهذا الدين الناشئ ، كأنما استأنفت الدعوة إليه من جديد .

ولكنهم لم يكونوا على حق حين حاولوا أن يصبغوا الردة بغير صبغتها وأن يفهموها على غير وجهها ، ولا سيما المقاد المغرضين الذين «حرفوا بها حمداً ليتسللوا منها إلى الطعن في نشأة الإسلام . فقالوا : إن ارتداد الأعراب إنما كان ظيلاً على أنهم قد أسلموا مكرهين ، فعاشوا أن وجدوا سبيلاً إلى النكسة على أعقابهم حتى نكسوا مسرعين .

والمسألة أوضح من هذا لو أراد أولئك النقاد طريق الوصوح .

المسألة أقرب شيء إلى طبائع الأمور في أشباه هذه الأطوار من كل دين ومن كل مذهب ومن كل دعوة تتناول الناس عامة وخاصة ، بل من كل فكرة تُعاصر الأذهان والقلوب حتى ما كان من قبيل الحكمة والفلسفة والدراسات العلمية التي يُعنى بها نخبة الباحثين ولا تتسرب دعوتها إلى السواد فماذا حدث في الحكمة بعد سقراط ؟ وماذا حدث في مذهب الشوء بعد داروين ؟ وماذا حدث في علم الأخلاق بعد كانت أو بعد بشتام أو بعد ريجون ؟

فوالذي حدث من ردة العرب هو الطبيعي المنتظر أن يحدث ، والذي تَحَيَّلَه المقاد المغرضون واجباً مقررًا هو العريب الذي لم يحدث قط في دعوة من الدعوات .

والأفما هو ذلك الذي كان يتحمله أولئك المغرضون ؟ . . أكانوا يتحيلون أن ديناً جديداً يملك الناس جميعاً في الجزيرة العربية فيسرى إلى كل نفس ، ثم

يسرى من كل نفس إلى جميع بورطها وحفاياها فلا يُنفى فيها بقية للنكسة والارتداد ؟ أكانوا يتخيلون ذلك الذين مقتلعاً في مدى تلك السنوات القليلة كل أثر لأطماع الخليفة الأدعية وكل حنين في قلوب الرعماء إلى الجاه القديم ، وكل فضلة من مصلات الجاهلية ، وكل باب من أبواب الدسائس التي تنفذ إلى جزيرة العرب من طريق الدول الأجنبية والعُصْب الماخلية ؟ ، أكانوا يريدون من الأعراب بعد بضع سنوات أن يوغلوا في الإسلام أشد من إيعال قبائل نجران أو الفساسنة في الدين المسيحي بعد بضعة قرون ؟

إن تخيلوا ذلك فالنوم على الخيال المصطل وليس على الواقع ولا على العقل السليم ولا على الإسلام .

وما من شيء آخرى أن يدل على الشاة الطبيعية في الإسلام من هذه العوارض الطبيعية التي عرضت له في حياة نبيه وبعد موته ، وأولها حرب الردة وما اقترنه بها من هوان للنكسة والاضطراب ،

لقد كان النبي مناط الاستقرار في الجزيرة العربية بعد نجاح دعوته ودخول العامة والخاصة في دينه ، أو كان كما قال الشاعر

هإنك موضع القسطاس منها فتجمع جانبها أن يميلا

ولذا غاب « مناط الاستقرار » أو موضع القسطاس مماذا يكون ؟ بل ماذا يمكن أن يكون ؟

يكون نقيض الاستقرار لا جرم .

أو يكون الميل هما والميل هناك ، ولو كان المارص الذي طرأ قد عرض لأجام من المادة لا تعرف الدين باختيار ، ولا تعرفه باضطراب .

فلما غاب « مناط الاستقرار » أول مرة حدث ما لا يد أن يحدث ، وطرأ التقلقل الذي لا مصاص منه في كل بيئة ريشا يروك الأثر الطارئ وترجع الأمور إلى بصاب معرض لكل طائفة من الناس تقلقل يناسبها ويجري في مجراها

تقلقل الأنصار وهم مسلمون حق مسلمين ، واجتمعوا في سقيفة بني ساعدة
يتنون بتهم في مصير الخلافة ، لأنه مصير لا بد لهم من البت فيه

وتقلقل المهاجرون من بايع منهم أب بكر ومن لم يبايعوه ، ومهم عثرة النبي
وأقربهم إليه أو أعظمهم إيماناً بدينه والغيرة عليه .

وتقلقل في مكة أساس قريب عهد بالنفاق ، فهموا بالعصيان لولا لظير من
وليّ السلطان

أما القبائل فيما وراء ذلك فكان نكل منها نصيب من التقلقل يناسب
نصيبها من القرب والبعد والمودة والجهاء .

فأقربهم إلى مهد الإسلام كانوا يخلصون للنبي ويخرجون على من ولي
الحكم بعده .

أطلعنا رسول الله مذ كان يبيتنا فيما لعباد الله ما لأبي بكر ؟

وأساس منهم آمنوا بالركاء ولم يؤمنوا بمن يؤدونها إليه ، واحتجوا بأيات من
القرآن الكريم حرفوها إلى المعنى الذي أرادوه ، ومنها : ﴿ خذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً
تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ . . . قالوا : فلسا
ندفع ركائنا إلا إلى من صلاته سكن لنا ! وأبو ، أن يدفعوها وإن علموا أن دفعها
فريضة من فرائض الدين ، فهم لم ينكروا الفريضة ولكنهم أنكروا الجبّة .

أما الأبعدون من مهد الإسلام فكان لهم تقلقلهم الذي يعرض لكل بعيد لم
يسكن قط إلى قرار ، وإنما هو في اضطراب مستور يتربص أن يشب إلى الجهر ما
تهيأ له وثوب .

فأبناء اليمن كان لهم مثلث قديم ، وكانت لهم أسر معروفة في الحكم تتداوله
تارة بسلطان الحبيشة ، وتارة بسلطان فارس ، وحيثما بين هذا وذاك بسلطان أهل
البلاد ، وكانت لهم كهانة تمتزج بكل عقيدة من العقائد الكتابية وغير الكتابية .
فلما اضطرب بينهم ميزان الأمور برز كل عامل من هذه العوامل في الفتنة بأثر
من آثاره ، ونجح بينهم الأسود العنسي صاحب النبوة فيهم - وهو مسخ مشوه -

لأن التشويه كان من آلات الكهنة والسحر عندهم ولم يكن من عوائق النجاح في أمثال هذه الدعوات فكان وفقاً لشروط الكهانة اليمينية على شبه من كاهنهم « مطيح » الذي قيل فيه إنه كان لحماً بغير عظم ، أو كان من لبن العظام بحيث يدرج جسمه كما يدرج الثوب خلا جمجمة رأسه ، وهي مع هذا تمس باليد فيؤثر فيها لمس الخفيف لفرط لينها ، وعلى شبه من كاهنهم « شق » الذي سمي بهذا الاسم لأنه أشبه بنصف إنسان مشقوق لنحافته وانسلاخ أعضائه فكانت حقيرة الأسود العسى آلة من آلات مجاحه تبطل العجب ولا تدعو إليه ، كلما امتنعظم أحد أن يظهر مثله بما ظفر به من الفوز العاجل في بداية الفتنة اليمينية .

وحيثما رجعت الفسة إلى مطامع المسمى وأمثاله من المشعوذين الطامعين إلى الصولة فقد بدأت طلائعها من أيام النبي ﷺ في أبحاء منفردات من الجزيرة ، لأن هؤلاء المشعوذين لم يفهموا الإسلام ولم يعقلوا قط أنه دعوة لإصلاح الخير الناس ، وكل ما عقلوه أنه حيلة كاهن أفلحت فحق بهم أن يطمعوا في الفلاح لأنهم كهان لا يعرفونهم وسائل السحر وحياتل الخدعة فسطعت دعوس الفسة من هنا وهناك والنبي ﷺ بقيد الحياة ، إلا أنها لم تنهزم ولم تبلغ مداها من الانتشار في حياته ﷺ

ولكنها تجمعت إلى يوم الرجة التي ارتجتها الجزيرة العربية بعد فراقه هذه الدنيا وهي رجة لا محيص عنها فما كان معقولاً ولا منظوراً أن يحدث هذا الحادث الجلل بغير رحته التي تقترون به لا محالة ، ودا وقعت الرجة فما كان معقولاً ولا منظوراً أن تقع على غير هذا المثال .

وخاية ما يفهم من هذه الرجة التي لا خربة فيها أنها الأثر المعقول المنظور لمطامع الطامعين وحلائق الأعراب ودوى الجهالة من أهل البادية في كل جيل فما عرف التاريخ قط أن سماً منقطعاً للبداءة الأولى إلا عرف منهم الاستعداد لأمثال هذا الانتقام كائناً ما كان الدين الذي يتحلونه والزمن الذي قصوه في انتحاله . وربما مضت مئات السنين على قبيلة من البادية الممرقة في البداءة وهي تدب بالمسيحية أو الإسرائيلية ثم تنقلب مثل انقلاب الردة في رجة من

الرجات النفسية أو الاجتماعية التي تشبهها ، ولا يستغرب العالمون بطباع الناس هذا الانقلاب بعد مئات السنين كما استغرب أداس أن ينقلب بعض أهل البادية على الإسلام أو على دولة الإسلام ، ولما يقض على دخولهم فيه عشر سنين .

على هذه الحقيقة أن نفهم مئة الردة بصافاً للتاريخ إن لم يكن لإصاف الدعوة المحمدية بما يعنى أولئك المستغربين .

ولإنصاف التاريخ ينبغي أن نفهم هذه الفتنة على أنها أصدق امتحان للدعوة المحمدية خرجت منه دعوة من الدعوات .

فإذا كانت فتنة الردة قد كشفت عن زيغ الرغيب ورغبة المرتابين فهي قد كشفت كذلك عن الإيمان المتين والعداء السمع واليقين المبنى فجمعت للناس نماذج للصبر والشجاعة والإيثار والحمية تشرق بها صفحات الأديان ، وحامت الشهادة الأولى على لسان رجل من أصحاب طليحة سألته : ويلكم ما يهركم ؟ فقال له أنا أحدثك ما يهزمننا إنه ليس رجل ما إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله . وإن لنفى قوم كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه !

وقد امتحنت دعوه لإسلام وامتحت جميع الدعوات التي بهتت لمنافسته بقوة السلاح وقوة الدهاء وقوة العصبية فقصت له بالبقاء وقصت عليها بالفناء ولو كان نجاح الدعوة الإسلامية نجاح سلاح أو دهاء أو عصبية لقد كان أصعب متتبع من أدعياء الردة حليفاً أن يطمع في ذلك النجاح ، لأنهم بدأوا دعوتهم ومعهم من جموع القبائل التي تعتر بعصبيتها ما لم ينتهياً لصاحب الدعوة لمحمدية قبل عدة سنين ، وصدفهم ناس كانوا يقولون إن نبياً كادنا منهم حير من نبي صادق من مضر أو قريش .

وأصدق من هذا كله في امتحان الدعوة المحمدية أنها خرجت من فتنة الردة وهي شهادة الواقع والحق بنية حية تسير على سنن الحياة الصحيحة التي لا زيف فيها ولا اضطناع . يعرض لها الخطر من أسياها ، وتعرض لها السلامة من أسياها ، وتتجو كما تتجو النية الحية القوية حيثما تجمعت فيها عناصر النجاة

فليست هي جسمًا محجّتًا بالأوهام كما زعم طليحة الكذاب لجسمه أنه لا يعمل فيه السيف ولا تصيبه السهام . ولكنها جسم صحيح يعمل فيه السيف وله مع ذلك ما يدفع الطعن ويرى من الجراح .

ولا شك أن المسلمين لم يواجهوا جواب الخطر كلها في حروب الردة دون المرتدين الذين أشعلوا الفتنة وصلّوا بارها . فقد كانت حروب الردة فتنة كجميع المن التي لا يؤمن خطرهما على الفريقين المشتركين فيها فكان فيها جانبها الخطر على أهل الردة كما كان فيها جاسها الخطر على الإسلام . وما كان منها خطرًا على فريق فقد كان فيه للفريق الآخر أمان .

وقد كان أمانها على الإسلام أن المرتدين متفرقون لا تؤلف بينهم وحدة معلومة المقاصد في السياسة ولا في الدين ، وأنهم هددوا المدينة بجمع المادية فأثاروا فيها سلبية الدفاع ووجدوا بين صفوفها وهي موشكة أن تتصدع بين الشيع والأهواء . فعلم أهل المدينة كما علم أهل مكة أنهم مهددون بجائحة من البادية لا يطعمون بعدها إلى مصير ، وهبوا يتعاونون ويتكاتفون لانقضاء تلك الجائحة سواء من بيع الخليفة ومن تشاغل عن البيعة في أوائلها وتقدم على رموس المدافعين أناس كانوا في يوم البيعة متخفين ، وجرى القصاص بوقوع أهل الردة في خطأ من أخطاء العجلة كان فيه نفع - أي نفع - للمسلمين . فهاجموا على المدينة مغتربين بكثرتهم وقلة المدافعين عنها ، ولم يحسنوا الأهبة للمهجوم كما أحسن المسلمون الأهبة للدفاع . فثارت حمية الأنصار والمهاجرين معًا للدين الذي آمنوا به ، وثارت حميتهم معًا للجور الذي رُوعوا فيه ، وكانت هذه الهجمة وبالأعلى الردة وفاتحة من فوائح الهرطقة ، ولو أنهم قنعوا بالبقاء في باديتهم والتوغل في صحرائهم لقد كان ذلك أدنى إلى الحرم من ناحيتهم ، وإن لم يكن حتمًا لزامًا أن يفضي بهم آخر الأمر إلى نجاح

وزاد في بواعث الطمأنينة إلى جانب المسلمين أن عاد جيش أسامة ساء مرفورًا ولمّا ينقص على مبعثه شهران على أرجح الأموال - عاد بالأسلاب والغنائم من تحوم الروم ولم يُقتل منه أحد ولا بدا عليه عاء أو مشقة - كان فيه

ولا تجهل قبائل البادية ما هي دولة الروم التي اجتراً الجيش على تحومها في غير مسألة . إنهم يعلمون ما هي دولة الروم بالعيان أو يعلمون ما هي دولة الروم بتهويل السماع ، وجيشٌ يذهب إلى تحوم تلك الدولة ثم يعود غير مسحوق ولا منقوص بل يعود بالغنائم والأسلاب ، كيف تستخف به قبيلة هائمة في عرض صحراء ؟ وكيف تخفى دلالة هذا الحدث على أناس اشتهروا بتسمم الأخيار كما اشتهروا باستطلاع الدلائل على القوة والضعف وعلى الخطر والأمان ؟

إن جيش أسامة قوة ذات مال في الجزيرة العربية ، ولكنه فعل بسمعته ومعناه ما لم يفعله بقوته وغذته فأحجم من المرتدين من أقدام وتفرق من اجتماع ، وهادن المسلمين من أوثك أن ينقلب عليهم ، وصنعت الهيبة صنيعة قبل أن يصنع الرجال وقبل أن يصنع السلاح

تلك فتنة الردة بحميتها ، وبخائس الخطر والسلامة فيها .

قلها أبو بكر رضي الله عنه بأحزم ما تقابل به من مبدئها إلى منتهاها ، وعالجها علاجها في كل خطوة من خطواتها وكل ناحية من نواحيها فبادرهم بالحزم من صبيحتها الأولى ، وتمتعها بالحرم يوم بعد يوم وساعة بعد ساعة حتى أسلمت مقادها وثابت إلى قرارها

وأحزم الحرم في تلك الفتنة عقابه للمرتدين الذين مَرَدُوا على العصيان ولم يستجيبوا نصيح الموده ولا استجابوا بدير الخزاء ؛ فقد كان العقاب أليق شيء بالوُزْر الذي احترموه ومردوا عليه . أناس قد استوهنوا سلطان الدين وبخلوا بالمال فيلج من شحهم به أنهم أنكروا حقوق الدين كده في سبيل حصه من الزكاة ، فجرؤهم أن يشهدوا من بأس ذلك السلطان ما يعتيرون به ولا يتسونه مدى الحياة ، وأن يفقدوا المال الذي من أحله تآذروا إلى الفتنة واستَبَقُوا إلى العصيان . فاستنيحت ديارهم ومرعيتهم ومساقيهم ووهبت عظايا للمجاهدين ، ولأن خالد في بعض المواقع وأبو بكر الوديع الرفيق لا يلين ، ووضع القصاص يمين مجاوروا مع الزكاة إلى قتل المسلمين بين ظهرانيهم ، فلم تأخذ فيهم هراة بعد إصرارهم على العصيان واعتدائهم بالقتل وإعراضهم عن النصيح والذير

جزاء حق لأنه من جنس العمل

استهانة يقابلها بأس ، ويخل بالمال يقابله صياح للمال ، وبفس بنفس ، ومجاهدون مخلصون يؤثرون الإيمان على عروض الدنيا أحداً ثأرهم من عصاة حادرين يؤثرون عروض الدنيا على الإيمان .

قال أبو رجاء الصبرى ، « دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين ورأيت رجلاً يقتل رأس رجل ويقول له : أنا عداؤك ولولا أنت لهلكما ، قلت من المقتل ومن المقتل ؟ قالوا . هو عمر يقتل رأس أبي بكر فى قتال أهل الردة إذ مسعوا الزكاة حتى أتوا بها صاغرين » .

وأبو رجاء من ثقات الرواة ، وكلا الرجلين جدير بما روى عنه من مودة وإكبار ، عمر جدير بإكبار أبي بكر ، وأبو بكر جدير بإكبار عمر إياه ، فالخبر صحيح أو هو كالصحيح ، إن لم يكن فهو حري أن يكون

هالك ولا ريب أعظم رجلين واجها حروب الردة بين عظماء المسلمين فى ذلك الحين .

وما كان اثنان قط أقرب منهما فى القصد ، ولا كان اثنان قط منهما فى رأى بما أشارا أول الأمر فى شأن أهل الردة .

ولا ينتهى العجب فى موقفهما هذا عند فرط لاقتراء وفرط الابتعاد ، ولكنه عجب عاجب من غير ناحية فيه ، فإذا قُدِّرَ لهما أن يتعقا مقصداً ويحتكما رأياً فقد كان المظنون أن يتجه عمر إلى جانب الشدة ، وأن يسحبه أبو بكر إلى جانب اللين ، فجاء اختلافهما يومئذ على غير المظنون

ومهما يكر من حق الدراسة التاريخية فى هذا الموضوع فحق الدراسة النفسية يساونه إن لم يرد عليه ، أو ربما كان حق الدراسة التاريخية مطلوباً لما ينتهى إليه من هذه العجيبة التى هى غاية العلم الذى نصيب إليه إذ ليس للماريخ ولا لتعبيره من العلوم عاية أشرف ولا أنفس من تعريف الإنسان بالإنسان .

كان عمر يقول لصاحبه . يا حليفه رسول الله ، تألف الناس وارفق بهم
 كيف تقابلهم وقد قال رسول الله ﷺ « أمروا أن أقاتل الناس حتى يقولوا
 لا إله إلا الله . فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى نفسه وماله إلا بحقه »^(١) .
 وكان أبو بكر يقول . « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة
 حق المال ، والله لو منعوني عاقاً^(٢) لأقبلهم على متعها » ويملكه العصب
 فيصبح بصاحبه * يا ابن الخطاب ، رجوت بصرتك وحتتى بعذلابك ؟ أختار
 فى الجاهلية وخوارى الإسلام ؟ إنه قد انقطع الوحى وطم الدين ، أو يقص وأنا
 حى ؟ » .

فكيف اختلف الصاحبان هذا الاختلاف ؟

أما أن يختلفا فلا عجب ، وأما أن يتصارحا بالاختلاف فلا عجب فيه كذلك
 وإنما العجب - عند النظرة الأولى - أن يجيء منهما الاختلاف على هذا
 النحو الذى حالف المتصور كى يخالف المعهود من طبائع الرجلين ، وهذا الذى
 يستوقف النظر فى طبيعة ما يستوقف الأنظار من حروب الردة ، ومن جميع ما
 أعقب وفاة النبى ﷺ وقيام الخلافة الأولى .

وصفوة ما يقال فى تفسير هذه العجبية حقيقتان غير عجيبتين أولاًهما أن
 المعهود من أخلاق الإنسان ليس هو الإنسان كله ، بل فى الإنسان شىء كثير مما
 ليس يعهده الناس منه فى عامة أحواله والحقيقة الثانية أن الخلق المعهود قد
 يفسر على وجوه كثيرة بعضها موافق للمستأدر إلى الدهر وبعضها لا يوافق
 المتبادر إلى الدهن إلا بعد إتمام واستقصاء .

فالشدة فى أبى بكر موجودة فى مناسباتها

واللين فى عمر موجود يظهر فى مناسباته .

وأولى المواقف أن يظهر فيها هذان الخلقان هو الموقف العصيب ، لأنه موقف
 لمراجعة الذى لا يذهب فيه الإنسان مع الخطايرة الأولى

(١) لائى من أولاد عمر

فالموقف العصيب هو الموقف الذي يراجع فيه الإنسان نفسه ويشرب إلى
المكسب من أخلاقه فيصل منها إلى القرار الذي يحفى على الناس في عامة
الأحوال ولا يظهر لهم للوهلة الأولى فيشتد اللين ويلين الشديد ، أو يبدو كل
مهما على الخالين بجميع ما فيه من شدة وبين

ومن ثم يبدو ما لم يكن معهود في عامة الأحوال

على أن الموقف الذي وقفه عمر في حرب الردة معهود فيه إذا علمنا أن الخلق
الإنسانى يفسر نفسه على عدة وجوه

وعمر متصرف بالرأى

وعمر جرىء فيما يرى

وعمر وثيق الإيمان .

وعمر عادل متخرج فى عبده .

وهل كان موقفه من المردين حلواً من خلق من هذه الأحوال ؟

ألم يكن فيه تصرف حين أراد أن يؤجل أمر الزكاة إلى يوم تتبدل فيه
الأحوال ؟

ألم يكن فيه جرأة حين جهر بهذا الرأى ولم يحفل بمعارضة ؟

ألم يكن فيه ثقة بأن لمصير إلى ثبات الإسلام ، وإن صل من نخل وزرع فى
الطريق من زاع ؟

ألم يكن فيه تخرج من فصاض لم يتصح له حقه فيه حتى وصح له ذلك
الحق فظل الحرج ووافق صاحبه فى كل ما رآه ؟

فهذا هو عمر المعهود ، ولكن بعد إنعام واستقصاء

أما أبو بكر المعهود فتحسب أننا قد بيناه فيما تقدم ، فبين أن ما صنع من
قنال أهل الردة كان أقرب الأعمال إلى الصدقييات ، المطبوعة ، وإن بدا فى
الظرة الأولى على غير ذلك ، ونحن لا نفهم الإنسان حقاً إذا فهمنا أنه يعيش
حياته كلها ولا يأتى بشيء يحالف ما عهدناه وانتظرنه . ونحن لا نستغرب

الموقفين من أبى بكر وعمر إذ أحصرونا هذه الحقيقة التى هى أقمن شىء ،
بالإحضار فى دراسة النفوس الإنسانية ، وبخاصة نفوس العظماء

وقد وصح كل الوصوح أن أبى بكر كان على صواب عظيم

ولكن لم يتضح كل الوصوح أن عمر كان على خطأ عظيم

فنحن نحيل إلينا اليوم ، أنت لو كنا فى عصر الردة لوضح لنا يومئذ ما يتضح
لنا اليوم ، ولم نتردد فى متابعة أبى بكر إلى القتال على يقين أنه الصواب كل
الصواب أو أنه الواجب الذى لا مثوبة فيه .

ولكننا لو حضرنا ذلك العصر لحوار كثيراً أنه يميل ما الألوف - بل ألوف
الألوف - إلى القول بالمسالة وانتاركة حتى حين ، وحوار أن يعتقد ما الكثيرون
أن التريص بالمرتدين حتى يعود حمش أسامة ويثوبوا إلى الحسنى أسلم وأحرم .
فإن لم يثوبوا إلى الحسنى فعمة القتال يومئذ أوفى وأعظم ، وقد يرجح بنا إلى
هذا الرئى أن الخطر من بكسة المنافقين فى مكة والمدينة غير بعيد ، وأن الخطر
من غلبة المرتدين غير مستحيل ، وأن القبائل إن بقيت فى باديتها فأمرها
مستدرك حتى تعالج بالهواذة أو بالندير أو بالقنثال أحر الأمر على ثقة من
الغلبة فيه .

ذلك جانر واضح الحوار ، وما كان كذلك فالقول به ليس بالخطأ العظيم ، وإن
بيمت الحوادث أن القول بغيره كان صوتاً جدياً صواب

وإما الخلاف فى أهل الردة من ضرور خلاف الذى يفصها العمهاء لأن
الرأى وحده لا يكفى وكفى يوماً لقض خلاف فى مسألة حاسمة من
مسائل التاريخ .

وقد شاء القضاء أن يكون أبو بكر بطل الإسلام فى حروب الردة غير مدافع ،
فهو صاحب الشرف الأول بين دوى الرأى ودوى العمل فى تلك الحروب وكأنما
عمر قد وضع بشعبه شفاء المسلمين جمعاً على ذلك الرأس الخليل يوم انحنى
عليه بالتكريم والتقبيل ، وحسب المؤرخ والمفسران عبرة أن يلمح هذه الثروة
العسبة فى صدر الدعوة الإسلامية : دعوة فيها لكل موقف أبطال ، وفى كل

يظل منها أهمية لكل حادث طارئ تختلف فيه الأهـب والأراء ، وفيهم جميعاً التعاون والإخلاص مختلفين ومتفقين .

وما اسهت حروب الردة حتى بدأت في تاريخ الإسلام مرحلة أخرى أجل وأعظم ، تصدى لها الصديق بذلت الحرم الذي تصدى به لكل ما عقد النبي عليه وأمر بصوبه إقدام كانه لا يعرب المبالاة والتدبير ، ومبالاة وتدبير ، كأنهما لا يعرفان الإقدام .

كانت المرحلة الأولى تأمين الإسلام من عُقر داره

وكانت المرحلة الثانية تأمين الإسلام في حدوده وتُخومه ، ودفع الخطر من هجوم الأعداء عليه .

ويقول تأمين الحدود لا نريد ، لأنا نعتقد أن الصديق ﷺ أخذ في تسيير البعث إلى حدود العراق والشام وهو على هذه البية دون بية العتج بالسلاح ، وأنه ﷺ قد ألزم في سياسته الخارجية خطة النبي ﷺ في تلك السياسة . وهي الخطة التي ظهرت في بعثة بيوك ثم في بعثة أسامة بن زيد ، وأصدق ما يقل فيها أنها خطة لا هجوم فيها ولا تهجم ، ولا باعث لها إلا دفع الأذى . وحماية الطريق ، والمهيد لشر الذين بالحسنى والبرهان إن يمر شره بالحسنى والبرهان ، فإن قامت العقبة من قوة طاعية تحول دون تلك وعلى القرية الضاعية حساب تلك العقبة ، جيشاً حان أوان الحساب

ففي عزوة بيوك : كما قلنا في عقرية محمد - أعاد الجيش الإسلامي أدرجه بعد أن أيقن بإصرار الروم عن القتال في تلك السنة ، وكان قد سرى إلى النين نياً أنهم يعبئون جيوشهم على حدود البلاد العربية ، فلما عدلوا عدل الجيش الإسلامي عن الغزوة على شرط ما تكلف من الجهد والمفقة في تجهيزه وسفره .

أو كما قلنا في عقرية عمر إن دولة الروم كانت ترسل البعث إلى تحوم الجزيرة وتهيج الفسائل لحرب المسلمين من عهد النبي ﷺ ، وكان المسلمون يعيشون في فزع دائم من خطر هذه الدولة وأتباعها ، يدل عليه كلام عمر وهو

يتحدث عن أرواح السبي حيث يقول « . وكما تحدثنا أن غسان تنتعل السعال لعرونا ، فنزل صاحبي يوم نوبته فرجع عشاء فضررب يائي شديداً وقال . أثم هو ؟ ففرغت فخرجت إليه ، وقال . حدث أمر عظيم . قلت : ما هو ؟ أ جاءت غسان ؟ قال : لا . بل أعظم منه وأطول . طلق النبي ﷺ نساءه ! » .

وهو حديث يتبين منه مبلغ الصراع من يهدد الروم للجزيرة العربية بالليل والنهار

فلما تولى الصديق عليه السلام الخلافة أوفد بعثة أسامة التي أصبح أن تسمى بلعة العصر الحاضر بعثة تأديبة لردع القبائل التي تعيث في الطريق بين الحجاز والشام بأمياً لتلك الطريق وتوطئاً لهيبة الإسلام في نفوس تلك القبائل فلم تجاور البعثة هذا العرض المحدود ولم تلت أن فعلت إلى المدينة بعد أربعين يوماً في قوة بعض المؤرخين وسبعين في قول آخرين .

أما غزوة فارس فقد كانت استطراداً لحروب الردة في أطراف البحرين ، وكانت القبائل التي تدين لسلطان فارس توالى الإغارة على أرض المسلمين فيدهونها ويقتنصون منها ويتمقبون بها في بلادها ، وكان الصديق عليه السلام يجهل اسم القائد المقدم الذي كان يتولى الدفاع والتعقيب في تلك الأنحاء ، فسأل عنه في شيء من العجب : من هذا الذي تأتي وقائعه قبل معرفة نسبه ؟ فعرفه به قيس بن عاصم قائلاً : هذا رجل غير حامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد : هذا المنثى بن حارثة الشيباني !

فكان هذا لاستطراد في حرب الردة بداءة الاشتباك بفارس ومن والاه من قبائل البحرين والسود ، ومضت الحوادث شوطاً قبل أن تنقلب إلى الحرب الصروس بين العرب وفارس في أوسع نطاق ، فلما أرسل الصديق خالداً لنجدة المنثى أمره أن « يتألف أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم » ، وتقدم خالد في تأمين الطريق فصالح أهل الخيرة وغيرهم على « أن لا يحلّموا ولا يعنوا كافريناً على مسلم من العرب ولا من العجم ، ولا يذلوهم على عورات المسلمين . . فإن هم حالفوهم فلا دمة ولا أمان وإن هم حفظوا ذلك ورعوه وأدّوه إلى المسلمين فلهم ما للمعاهد ، وعلى المسلمين لمع لهم . . وأما رجل منهم

وُجِدَ عليه شيء من رِزى الحرب سنل عن ليمه ظك ، فإن جاء منه يخرج والا
حوقب بقدر ما عليه من رِزى الحرب

فمن طلائع العزوة العارسية يلوح للمتبع أنها غزوة فرصتها الحوادث على
الخليفة الأول ، فاستجاب لها بما ينبغي أن يستجيب ، وقبيل المناجزة حين لم
يكن له من قبولها مناص ولا مشحول ، ولم يتس مع هذا أن يتألف الأمم ويسالم
الأمراء ويدعوهم إلى السلام والإسلام ، ويشرح إليهم من يعلمهم ما هو
وصف الدين الذي يدعوهم إليه . فإن أصابوا إليه هلا حرب ولا عدا ، وإن
جرؤاله السيف رجع معهم إلى حكمه الذي نزلوا عليه

وهكذا قدر للخليفة لأول أن تتوطد على يديه دعائم الدولة الإسلامية
الناشئة في سياستها الداخلية وسياستها الخارجية ، فما صنعها فقد استمر
فيه على خطة لم يزل ، وما صنعها الدين لحقوا به فإنما هو نتيجة لازمة
لما بدأ فيه

وشاء الله أن يشهد سداد رأيه بعينه وهو حظ لا يتاح للكثيرين ممن يمتحنون
الدول العظام ولا سيما الشيوخ . فشهد سداد رأيه فيما تم من أعماله وميما هو
أحد في التصام ، وفارق الدنيا وهو يعلم أنه قارن التوفيق في حرب ودرس كما
قارنه في حرب الردة ، وليس بينهما تفاوت في الإقدام ولا في ثقة الإيمان

ويحق لمن يؤرخ تلك الحوادث ، ولمن يبحث في صفت الصديق ومناقبه ، أن
يسأل ما مبلع تلك الثقة من الإيمان ؟ وما مبلعها من الحساب ؟

إنه سير البعوث لإخضاع الحرية العربية وهي ترجح رجتها الكبرى وليس معه
من الحنن إلا قلة محدودة من أهل تلك الحرية .

وإنه سير البعوث إلى تخوم فارس والروم وليس معه من قوة غير المسلمين من
العرب ، مستثنى منهم في أول الأمر كل من تابوا بعد ردة ، وإنه لتفاوت بين
الفوتين أعظم من التفاوت بين جيش الخليفة وجيوش المرتدين .

أحكام سجارفة ؟

أفكانت يقيناً لا تصحبه الروية وهي في الدين الإسلامي مطلوبة مع اليقين؟
لا ريب أن اليقين كان أكبر العدد التي تقدّم بها الصديق في بعوث الردة وفي
بعوث فارس والروم على السواء

ولا ريب أنه أقصى المسلمين الذين نابوا بعد ردة قلم يلحقهم بالحد الموجهين
إلى تحوم الدولتين ، لأنه علم أن العدة الكبرى في أولئك الحد هي عدة اليقين
الذي لا يتزعزع ولا يدركه الوهن والطمع

ولا ريب أن يقين الصديق بنصرة الإسلام على الدين كله في يوم من الأيام
قد كان أقوى يقين سكن في قلب إنسان أو سكن إليه قلب إنسان

فكل وعد من وعود القرآن قد كان عنده حقيقة عيان ، بل أمكن من حقيقة
العيان .

وكل كلمة سمعها من النبي نجر من أخبار العد المجهول فهي عنده شاهد
على شواهد الحاضر المسموس باليدين

نزل القرآن الكريم بعبء الروم على الفرس في بضع سنين فذهب الصديق إلى
مشركي فريش يكتبهم نبأ هذا النصر العريض لأهم كرهوه كراهة منهم في كل
أهل كتاب ، وأحسوا نصر فارس حثاً منهم لكل عائد وثى ، وقال لهم ليظهر
الروم على فارس ! أحسوا بذلك تبساً . فصاح به أبي س حلف الجُمحى .
كذبت يا أبا فصميل ! قال الصديق أنت أكذب يا عدو الله ، ودعاء أبي أن
يراهنه على عشر فلائص . فعاد إليه يقول : بل على مائة إلى تسع سنين لأنه
سمع وعهد القرآن ، ووعد القرآن حقيقة عيان ، بل أمكن من حقيقة العيان

ولما عقب حاسوس المشركين سُرقة بن جعشم ركب النبي ﷺ في الهجرة
سمعه الصديق يقول لسُرقة - كيف بك إذا لبست سوارى كسرى ؟

لما شك الصديق أن الإسلام غالب الأكاسرة في يوم من الأيام ، وأنه
منصور على الدين كله كما جاء في الكتاب وفي حديث صديقه الرسول
الأمين ،

فذلك كله لا ريب فيه .

سُبَّحَرُ الْإِسْلَامِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ . ذَلِكَ خَيْرُ عَمَلٍ بَلْ
أَمْكَنَ مِنْ خَيْرِ الْعِيَانِ .

ولكن أي يوم ؟ ومتى يحين الأوان ؟

هنا تبدأ الرواية إلى جانب اليقين ، بل تحب الرواية على ولي الأمر في
الإسلام كما يجب اليقين .

وَنَعْتَقِدُ نَحْنُ أَنَّ الْخَلِيفَةَ الْأَوَّلَ قَدْ أُعْطِيَ الرُّوْيَةَ حَقًّا كَمَا أُعْطِيَ الْيَقِينُ حَقَّهُ ،
فَمَا كَانَ أَبُو بَكْرٍ بِالرَّجُلِ الَّذِي يَسَى الْخَيْطَةَ كُلَّمَا وَجَعَتْ الْخَيْطَةُ عَلَى وَلِيِّ
الْأَمْرِ ، وَهِيَ هُنَا كَأَوْجَسَةِ مَا تَكُونُ

وحسبت من ذلك حيلته في حراسة المدينة وبيت أبيه بالمسجد حين تجرد
لكفاح أهل الردة ، ثم وصيته لخالد بن الوليد . وقد علم حُكْمُهُ فِي فِتْنَةِ الْحَرْبِ
وَقُدْرَتُهُ عَلَى قِيَادَةِ الْجَيْشِ - فَلَمْ يُنْسِهْ هَذَا الْعِلْمُ أَنَّ يَرُودَهُ بِالصُّبْحِ حِينَ حَرَجَ
لِحَرْبِ الْمُؤْتَرِكِينَ ، فَيُدِيرُ هَذَا النَّصِيحَ كُلَّهُ عَلَى الْخَيْطَةِ وَالْيَقِينَةِ كَمَا قَالَ مِنْ كَلَامِ
رَضِيٍّ وَجِيرٍ : إِذَا دَخَلْتَ أَرْضَ الْعَدُوِّ فَكُنْ بَعِيدًا عَنِ الْحِمْلَةِ فَإِنَّهُ لَا أَمَانَ
عَلَيْكَ الْجَوْلَةَ ، وَاسْتَظْهَرِ بِأَفْرَادٍ ، وَسِرْ بِالْأَدْلَاءِ ، وَقَدِّمْ أَمَامَكَ الطَّلَاعَ تَرْتَدُّكَ
الْمَنَازِلُ ، وَسِرْ فِي أَصْحَابِكَ عَلَى تَعِيْنَةٍ جَمْدَةٍ وَاحْرَصْ عَلَى الْمَوْتِ تَوَهَّبْ لَكَ
الْحَيَاةَ ، وَلَا تَقَاتِلْ بِمَجْرُوحٍ فَإِنَّ بَعْضَهُ لَيْسَ مِنْهُ ، وَاحْتَرَسْ مِنَ الْبَهَائِمِ إِنَّ فِي
الْعَرَبِ خَرْمًا . وَإِذَا لَقِيتَ أَسَدًا وَخَصَمَانِ فَبَعْضُهُمْ لَكَ ، وَبَعْضُهُمْ عَلَيْكَ ،
وَبَعْضُهُمْ لَا عَلَيْكَ وَلَا لَكَ ، مَتَرَبِّصٌ دَائِرَةُ السُّوءِ يَنْتَظِرُ لِمَنْ تَكُونُ الدَّيْرَةُ فَيَمِيلُ
مَعَهُ مَنْ تَكُونُ لَهُ الْعَلِيَّةُ ، وَلَكِنْ الْخَوْفُ عِنْدِي مِنْ أَهْلِ الْيَمَامَةِ ، فَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ
عَلَى قِتَالِهِمْ ، فَإِنَّهُ يَغْنَى عَنْهُمْ رَجْعُوا بِأَسْرِهِمْ ، فَإِنَّ كَعْبَكَ اللَّهُ الضَّاحِيَةَ فَاغْضُ
إِلَى أَهْلِ الْيَمَامَةِ ، سِرْ عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ .

وأدلى من هذه الوصية على الخليفة والاحتراس في كفاح الأحباب وصيته
لبريد بن أبي سفيان في فتوح الشام حين يقول : . . . وَإِذَا قَدِمَ عَلَيْكَ رَسُلٌ
عَدُوٌّكَ فَأَكْرِمِهِمْ وَأَقْبَلْ تُبَشِّرُهُمْ حَتَّى يَهْرَحُوا مِنْ عَسْكَرِكَ وَهُمْ جَاهِلُونَ ، وَلَا
تُرِيْهِمْ فَيَرَوْا حَلَالَكَ وَيَعْلَمُوا عِلْمَكَ ، وَأَنْزِلْهُمْ فِي ثَرْدِ عَسْكَرِكَ ، وَامْسَحْ مِنْ قَبْلِكَ
مَنْ صَادَتْهُمْ ، وَكَرَّ أَنْتَ الْمُتَوَلَّى لِكَلَامِهِمْ ، وَلَا تَجْعَلْ سِرَّكَ كَعْلَانِيَّتِكَ فَيَخْتَلِطَ

أمرك وأكثر حرصك ، وبددتهم في عسكري ، وأكثر مفاجأتهم في محاربتهم
بغير علم منهم بك ، فمن وجدته عفل عن مختبره فأحسن أدبه وعاقبه في
غير إفراط ، وأعقب بهم بالليل واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإياها
أيسرها لقربها من النهار ، ، ، .

ولم يسس قط ما بين جنده وجند العدو الأجبي من فروق العدة . فكان
يعمل في تدارك هذا الفرق ورأب هذا الصدع ما استطاع مذهب يوماً يتفقد
جنده الذين هموا بالخروج لغزو الشام فلم تعجبه عدتهم وسأل من حوله : ما
ترون في هؤلاء إن أرسلتهم إلى الشام في هذه العدة ؟ فقال عمر : ما أرضى هذه
العدة لمجموع بني الأصفر ، وقال بقية أصحابه نحن نرى ما رأى عمر ، فكسب
إلى أهل اليمن يستكمل العدة ويسهضهم إلى الجهاد ليخفوا إليه بما يسد هذا
النقص من جند وسلاح .

فالرجل الذي لا تفوته قائمة من شأن القبائل التي يرسل إليها بعوثه ،
والرجل الذي يحتار القائد فيحسن اختياره ثم لا يسى مع تلك وصيته
وتحذيره وإنما عدته بما يقارب عدة عدوه ، والرجل الذي يقرن ذلك كله
بالحيطة في مدينته بما هي وسعه ليس هو الرجل الذي يُزجى البعوث إلى
تخوم فارس ولم يأخذ للأمر مثل هذه الحيطة ولم يعمل فيه مثل هذه الروية ،
وليس بالذي يجازف وله مندوحة عن المجازفة من إرجاء أو مسالة إلى حين
ولما يرجو الغلبة بالقليل على الكثير لأنه يعتمد على « عدة الإيمان » ويعلم
كما قال ليزيد بن أبي سفيان : « قد نبأنا الله أن الفئة القليلة بما تعلب الفئة
الكثيرة بإذن الله ، وأما مع ذلك مدكم بالرجال في أثر الرجل حتى تكتفروا ولا
تحتاجوا إلى زيادة إنسان » .

وإن لنعم اليوم أن الصديق لم يجازف قط بتجريد البعوث إلى تخوم فارس
والروم ، وعدم أن عوامل التنصر كانت كلها أو معظمها في صفوفه ، وأن عوامل
الهزبة كانت كلها أو معظمها في صفوف أعدائه .

نعلم اليوم أن الفرس قد انهزموا لأنهم كانوا يدفعون العرب عن دولة عظمتها
الحروب الخارجية والفتن الداخلية ، وباحت نارها التي تعيدها في قلوب أهلها

تقبل أن تبوخ في معابدها ومشاعلها ، وشاع فيهم الخوف من الشيات في القتال حتى قيدوا بعضهم إلى بعض بالسلاسل ليحولوا بين هارب وهربه ، وقلت الدرية في قادتهم حتى تخيروا أسوأ المواقع وأسوأ الأوقات للهجوم في معارك كثيرة .

وتعلم أن الروم قد ألهموا لأنهم كانوا يدفعون العرب عن دولة حطتها ما قد حطم الفرس من الحروب الخارجية والفتن الداخلية ، وبحت عقائدها في صدها لفرط ما أرثي من الجدل العقيم والحدل الدميم ، واستكاست إلى الدلة رمزاً حتى رضيت بالجرية تؤذيها لبرابرة الهون والأبارة ، واشتملت على أم كثيرة تعاديا وتربص به الدوائر كلما طمع الطامعون فيها

تعلم اليوم ذلك من الوقع الذي وقع وبطل الشك فيه ، ومن التاريخ الذي تمسحت أمامنا صفحاته وقد زال عنها الحجاب

ولكن الصديق لم يكن قد رأى هذا الذي رأياه ، ولا تصفح هذا الذي تصفحه ، فهل معنى ذلك أنه أقدم بغير علم ، وأنه سسى ما طبع عليه من الخيطة وسخرم ، وأنه سبى عن واجب الروية وقد تهيأ له واجب اليقين ؟

لا فإن الذي كان يعلمه الصديق قد كان يكفيه ويغنيه عن هذا الذي علمناه

كان يعلم أن الفرس قد خسروا قبل الإسلام وقعة دى قار وهم أقوى صولة والعرب أصعب شأناً من شأنهم بعد الإسلام

وكان يعلم أن الروم قد صيروا على بعثتين عربيتين بلعنا من بلادهم إلى التحوم وأوغلت في بعض الأطراف ثم فترت هماتهم عن مقابلة ذلك بالقمع والقصاص السريع .

وكان يعلم أن العرب إن طلبوا الدثين حاربوا صادقين في القتال ، وإن طلبوا الدنيا حاربوا صادقين في القتال ، وأنهم مرعودون بالنصر ومؤمنون بصدق الوعد ومقبلون بنفوس تحب الموت كما يحب أعداؤها الحياة ، وأنهم خفاف لا تثقلهم العدد محميون من وراء ظهورهم بالصحراء إن وجبت الرجعة ، مُقْلِمُونَ على أرض حيرتها طلائعهم وهوت عليه خطبهم ، وأبلغت من أخبار فتنها ومعاسدها ما يلى له في الإيمان بالقدره عليه .

فإذا علم هذا فهو حسب من الروية مقروناً بذلك اليقين الذى لرسولها عن كل روية لكان له بعض العذر ، وكان به جُلُ الفناء .



وفى أقل من ثلاث سنوات قصار انجز ما انجز من تلك المآثر الطوال . وفى أقل من ثلاث سنوات أنفذ بعثة أسامة وفى سبيلها ما فيه من صعب ، وقَمَعَ الردّة وحولها ما حولها من خطر ، ووطى حدود فارس والروم ولها من هبة ومنعة : ثلاثة أركان للدولة الإسلامية لم يكن ليقوم لها ركن قبل أن تقوم ، ولو أنها حُست لثلاثين سنة . ولم تحسب لثلاث سنوات قصار . جُلَّتْها جميعاً بالثناء والفخر

ولم يتسع الزمن لإقامة نظام للدولة الإسلامية فى عهد أبى بكر على مثل النظم السياسية والإدارية التى تقام للدول الكبار فى حدائق نشأتها . أولعل المسألة هنا ليست مسألة اسراع الوقت وضيقه فى عهد الخلافة الأولى ، ولكنها مسألة الحاجة إلى تلك النظم وقلة الحاجة إليها ، وفى عهد الخليفة الأول بعد النبى صلى الله عليه وسلم لم يطرأ على إدارة الدولة الإسلامية ما يدعو إلى نظام جديد غير النظام الذى كانت تجري عليه فى عهده صلى الله عليه وسلم . لأن الحرية العربية عادت بعد حروب الردة إلى مثل ما كانت عليه فى أيام النبوة ، ولأن الأجزاء الأجنبية التى رحلت عليها دعوت المسلمين لم تزل إلى آخر خلافة الصديق فى دور العرو والفتح ولم تبلغ بعد إلى دور التوطيد والتنظيم ، فكل ما جرى عليه النظام فى أيام النبوة فقد كان صالحاً لاتباع فى أيام الخلافة الأولى ، وهما تتجلى حكمة النبى صلى الله عليه وسلم فى إسماعد الخلافة الأولى إلى أصلح الناس لتابعة العهد النبوى على حاله الذى كان عليه . حتى إذا حاد وقت التوسع والتصرف وجد الوقت من هو أصلح وأقدر عليه ، وكأبه كان معروف من قبل موكولاً إلى حينه يترقبه ويستدعيه . ولن يكون إلا عمر بن الخطاب كما سمعنا صلى الله عليه وسلم حيث قال : « أريت فى المنام أنى أرى بئلو بكرة على قليب ^(١) فجاء أبو بكر فترع دبوياً ^(٢) أو دبوين برعاً صعيفاً ، والله بعفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غرماً ، فلم أر عسقى يفرى فربه حتى روى الناس وصبراً يعطى ^(٣) » .



(٣) مرطع الإبل حول الماء

(٢) دلو

(١) بئر

وعلى هذا يمكن أن يقال إن الأداة الحكومية - أو الإدارية - لم تكن في عهد الصديق محتاجة إلى نظام غير النظام الذي اتخذه النبي ﷺ ، واكتفى به في إدارة الشئون العامة بمكة والمدينة والجزيرة العربية ، مع التعديل الذي اقتضاه توزيع العمل وتفرقة العبء الكبير بعد وفاة النبي ، وغياب المرجع الأعلى الذي ترتفع إليه جميع الأمور .

فتولى بيت المال رجل سمى النبي ﷺ « أمير الأمة » وهو أبو عبيدة بن الجراح ، وتولى القضاء رجل لم يشتهر أحد بالعدل اشتهاره ، وهو عمر بن الخطاب ، وتولى الكتابة كاتب النبي ﷺ زيد بن ثابت ، وكانت ولاياتهم أقرب إلى الارتجال والتداول منها إلى التكليف الدائم والعمل المرسوم .

وكان قادة الحشد يفتحون البلدان ويقيمون فيها الولاة والقضاة على النحو الذي ألفوه في الجزيرة العربية ، ومن عرضت له مشكلة من مشكلات الإدارة لم يبدأ بجنبى تركها على النحو الذي كان مألوفاً في تلك البلد ، ولا ما كان فيه خلاف للدين .

وكل من ولاء النبي ﷺ في حياته عملاً من الأعمال العامة أبقاه الصديق في مكانه ، أو رثه إليه إن كان قد تحول عنه ، أو استأذنه في تحويله عنه إن بدا له من مصلحة المسلمين ما أوجب تحويله ، كما كتب إلى عمرو بن العاص « إني كنت قد رددتكم إلى العمل الذي كان رسول الله ﷺ ولأكم مرة وسعاه لك أخرى : مبعثك إلى عمان ، إنجازاً لمواعيد رسول الله ﷺ ، فقد وليته ثم وليته ، وقد أحببت - أيا عبد الله - أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه ، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك » .

وأشار عمر بن الخطاب بعزل خالد بن الوليد بعد أن قتل مالك بن نويرة على غير هيئة قاطعة في رأى عمر ، وتزوج بامرأته في ميدان القتال وهو أمر تكرهه العرب قبل الإسلام وبعد الإسلام . فاحتلف الفاروق والصديق احتلافهما الذي يرجع من كل منهما إلى أصل أصيل في الطباع والظفر إلى الأشياء والرجال : والفاروق وديده أن يوقع الجزاء بمن يستحقه كائنًا من كان ، والصديق وديده أن يتألف ويستبقى ولا يتبدى شيئاً بغير سابقه ، وساعده على إبقاء خالد سابقة

للمسيح معه في حرب سي جذيمة فإنه تعجل يومئذ في قتل بعض
الأسرى فودّاهم السي حتى رد إليهم مئيلة الكلب ، ورفع يديه يبراً إلى
الله بما صنع خالد ، ولكنه لم يعزله من الإمرة أو القيادة فكانت هذه السابقة
أعام الصديق يوم لأم خالداً على ما بدر عنه ثم أبقاه .

وما من شيء يدل على تكافؤ العظمة بين الرحلين كما تدل عليه الحجة
التي يعتمد عليها كل منهما حين يحلفان ، فما اختلفا قط بحجة تضعف من
باحية وحجة تقوى من الاحية الأخرى ، بل كان لكل منهما حجته الناهضة
فيما يحثح إليه ، وإن كانت هذه حجة افتداء ، وهذه حجة ابتداء .

حجاء الغنائم والأثقال إلى بيت المال لتوزيعها بين من يستحقونها من
الرجال والنساء فكان القاروق يحج إلى تمييز الأصبغة على حسب المآثر
والأقدار ، وحجته أنه لا يُسوى بين من قاتل رسول الله ومن قاتل مع رسول الله ،
وكان الصديق يحج إلى اتسوية بين الأصبغة بغير تمييز ، وحجته أن الأعمال
شيء ثوابه على الله ، وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة .

وما اختلفت حجة الابتداء وحجة الاقتداء - أو نرك الابتداء - كما اختلفت
هاتان الحجتان على مساواة في الهوض والإقناع .

وقد جرى الصديق في سياسة الدولة على سنة النبي ﷺ من مشاورة دوى
الرأى والثقة في كل ما جنّ أو دعا إلى السؤال ، ولكنه كان يستقل بالرأى حين
تكون السبعة فيه تبعه دون غيره ، كما استقل بالرأى في اختيار الخليفة من
بعده ، واستقام له بعد المشاورة والرؤية أن يعهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب

فحلاصة ما يقال في سياسة الصديق للدولة الإسلامية على عهده أنها
كانت سياسة المفتدى المقننر الفعال الذى يصفى إلى الصبح من يرون
التصرف والتمييز والابتداء ، ولم يكن قط مقتدياً على صعب وتواكل والقاء
بالتبعة على غيره ، بل ربما اقتدى ليعمل ما هو أصعب وأفضل وأبهص
بالتبعة من أعمال المتصرفين



وإذا حُسبت لأبي بكر بعوث أسامة وبعوث الردة وبعوث فارس والروم ، فلا بد أن يحسب له عمل آخر لا يدخل في باب البعوث ، ولكنه أنوم للدولة الإسلامية من جميع هذه البعوث ، لأنه دستور هذه الأمة التي لم تقم لها قائمة بخبره ، وهو جمع القرآن

وقد كانت سنته في جمع القرآن سنته الواضحة التي لا تحيد عنها : وهي سنة الاقتداء والإصغاء إلى القوم من الآراء . فلما مات من مات من حفاظ القرآن في حروب الردة وحيف على من بقي منهم أن تأتي عليهم حروب فارس والروم كثر الأمر على عمر فأشار على الخليفة بجمع القرآن ، فأحجم بادئ الرأي ، وهو يقول : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ؟ ثم انشرح صدره لما أشار به عمر فتجرد له بجميع عزمه ، وانقصت خلافته على القول الأشهر والقرآن مجموع مفروغ من كتاباته في المصاحف كما نقرؤه الآن

وكانت الدولة الإسلامية بهذه المثابة أمانة أعظم بها من أمانة تنوء بها كواهل الرجال . يقول من شاء ما شاء في دراسة هذه الفترة الخالدة ، إلا شيئاً واحداً لا يقول عارف بما يقول ، وهو أن أحداً كان يتلقى تلك الأمانة خيراً من تلقيه أو يسلمها خيراً من إسلامه ، منذ أن تلقاها بيد من البى لتنتهي حتى أسلمها بيد إلى عمر بن الخطاب ،

الصَّدِيق والحكومة العَصْرِيَّة

قلنا فى الفصل السابق عن الصديق والدولة الإسلامية إن الحاجة لم تدع فى عهده إلى نظام غير النظام الذى سسه النبى ﷺ لسياسة الحرية العربية ، ورنه ﷺ قد تولى ولما تستقر الأمور فى البلاد المفتوحة على حال تدعو إلى اتساع نظام شامل لكل قطر من أقطار الدولة الإسلامية .

إلا أن الصديق كان أول خبيفة قام بالحكم الإسلامى بعد عهد النبوة فمن الطبيعى أن نسأل عن نوع الحكم الذى توصف به حكومته وحكومة الخلفاء من بعده ، وأن نعرف وجه المشابهة بين تلك الحكومات وحكومات العصر التى قامت على المبادئ الدستورية الحديثة .

فأى حكومة هى حكومة الصديق أو حكومة الإسلام فى عهده ؟ رأى العناوين هو أقرب إليها من عناوين الحكم فى هذا العصر الحديث ؟

الديمقراطية - ولا ريب - هى أقرب النظم إلى نظام الحكم فى عهد الصديق . ولكن الديمقراطية أشكال تختلف فى العصر الواحد بين أمة وأمة ، ولها قواعد دستورية ومقدمات تاريخية من العسير أن نوحّد بينها وبين قواعد الخلافة ومقدماتها ، ومن السهل جداً مع هذا أن تصدّف عن هذا التوحيد دون أن تُغض من نوع الحكومة فى صدر الإسلام .

فليس من المحقق أن حكومة الإسلام يومئذ توصف بالديمقراطية على المعنى الذى يهمه من هذه الكلمة فى هذه الأيام

ولكن من المحقق أن الحكومة الإسلامية على النحو الذى جاء به القرآن الكريم واتفق عليه المسلمون كانت بعيدة كل البعد عن جميع أنواع الحكومة المعيبة أو جميع المبادئ التى تستند فى تقرير حكم الشعوب على أساس معيب .

فإذا كانت حكومة الخلافة لم تقر الديمقراطية على أساسها العصرى المعروف

يسألهي - بلا ريب - قد أبعثت مبادئ الأوبوقراطية ، ومبادئ الشيوقراطية ، ومبادئ الأليجاركية ، ومبادئ حكومة العوعاء ، ومبادئ التي لا تستقيم مع حرية الفرد ومع المفطرة السليحة .

هــ الأوتوقراطية وهي حكومة الفرد المستبد ممنوعة في الإسلام ، لأن القرآن الكريم بأمر النبي أن يشاورهم في الأمر وينص على أن ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ۖ ۝ ﴾ .

وإذا كان النبي الذي يلقى الوحي الإلهي لا يجعل عن مشاورة أتباعه والرجوع إلى رأيهم في سياسته ، فعيره من ولاية الأمر أولى أن يتقيد بالشورى ويتجنب حكومة الطغيان .

والشيوقراطية وهي الحكومة التي يدعى فيها الحاكمون صفة إلهية ممنوعة كذلك في الإسلام ، لأن القرآن الكريم يعلم المسلمين أن النبي بشر مثلهم وتبطل الكهاته والوساطة بين الإنسان وربه ، وقد نهى النبي ولاته وأمرء حيثه أن يرموا العهود باسم الله أو باسم رسوله ، فكان يقول من ولاه « لا تجعل بهم دمة الله ولا دمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك ودمة أصحابك ، فإنكم إن تخفروا دمكم ودم أصحابكم أهون من أن تخفروا دمة الله ودمة رسوله »

ولما قيل للمصديق : يا خليفة الله ، أنكر ذلك وقال :

إنما أنا خليفة رسول الله ، وسأل الناس أن يقوموه ويرشدوه .

والأليجاركية وهي حكومة الفئة القليلة من الأعيان والسرورات ممنوعة كذلك من المسلمين ، لأن بيعة الخاصة في الإسلام لا تُفنى عن بيعة العامة وليس في الإسلام سيادة نسب كما جاء في الحديث الشريف

« اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة »

وحكومة الأهواء سواء كانت أهواء الوجوه أو أهواء السواد ممنوعة كما منعت الحكومات التي أسلفناها .

فليست أهواء المحكومين مُعينة عن أصول الحق والعدل ودستور الشريعة والنظام ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَا... ﴾ .

وإذا امتنعت كل هذه المبادئ المعينة في حكم الناس فقد صلحت الحكومة بما شئت من الصفات والعناوين إذ الحكومة على تعدد أنواعها إنما تنحصر في نوعين اثنين هما النوعان اللذان فرق بينهما أرسطو في أصول السياسة ، أو هما الحكومة الصالحة لمصلحة المحكومين ، والحكومة الفاسدة لمصلحة الحاكمين وكل ما عدا ذلك من الصفات والعناوين فهو داخل في أحد هذين النوعين .

فلماذا لم تكن حكومة الصديق ديمقراطية حديثة فالديمقراطية لا تتوحى من احكم غاية أفضل من العاية التي تتوحد بها حكومة الخلافة ، ولا تبعد من المبادئ شيئاً غير المبادئ التي أبعدتها الحكومة الإسلامية بما نص عليه القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو اتفاق المسلمين .

أما الحكومة من حيث علاقتها بشخص الخليفة وحلائقه النفسية فحالات أبي بكر التي عرفناها دليل عليها عفة وصدق ودعة وحرم وأمانة وكيس ، وكل ما يعهده من هذه الحالات فهو معهود من الخليفة الأول في جميع ما حكم به وتولاه .

ولى الخلافة فأصبح ذات يوم وعلى ساعده أبرار يذهب بها إلى السوق ، فلقبه عمر فسأله :

أين تريد ؟

قال : إلى السوق

قال : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين

قال : فمن أين أطعم عيالي ؟

فأشار عليه أن يدها إلى أبي هبيلة أمين بيت المال ليفرض له قوته وعوت عياله . ففرضت له ستة آلاف درهم في السنة

وكان يقيم بالسمح على مقرنة من المدينة فتعود أن يحلب للصعاء أعمامهم كرمًا منه ورفقًا بهم . فسمع جارية تقول بعد مبايعته بالخلافة :
اليوم لا تحلب لنا معانج دار .

سمعها فقال : بلى لعمرى لأحلبنها لكم .

فكان يحلبها وربما سأل صاحبها : يا حارة ! انخبير أن أرعى لك أو أصرح ؟
فربما قالت : أرغ ، وربما قالت . صرح فأى ذلك قالته فعل

ثم نكاثرت أعمال الحكومة فاسقل إلى المدينة ورأى أن يعين نفسه على الثقة بالتجارة حيثما استطاعها فلما حضرته الوفاة أمر أن يُحصى ما أحده من بيت المال فيرد من ماله وأرصه وقال لعائشة رضى الله عنها

« فإذا أنا مت فردى إليهم صحفتهم وعندهم ولقحتهم ورحاهم ودثارة ما فوقى اتقيت بها البرد ودثارة ما تحتى اتقيت بها نرّ الأرض . كان حشوها قطع السعف » .

وما روى عن عفته وزهده أن امرأته اشتتت حلواً واستفصلت من نفقتها في عدة أيام ما تشتريه به ، فلما علم ذلك رد التريهمات إلى بيت المال وأسقط من نفقته كل يوم ما نصل منها لثمن الخلوى .

وما كان صديق السبى وصفيه ليسج لنفسه ما لم يبحه السبى وإن استطاع من حاصة ماله ، فضلاً عن بيت مال المسلمين .

وكان حكمه إلى الرق والأناة والكياسة ، غير غافل عن اليقظة والحزم حيثما وجبت يقظة وحزم .

فكان يتقصى أخبار الولاة ويسأل الرعية : هل من أحد يتشكى ظلاماً ؟ فن وجد ظلاماً أنصف المظلوم على ستة النى استنها ، وهى أن الكبير صغير حتى يأخذ الحق منه .

وكان يوصي فائده « ألا تعفل عن أهل عسكرك فتفسده ، ولا تتجسس عليهم فتعصحبهم ، ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلايتهم »
أو يقول : « قبل علايتهم وكلهم إلى سرائرهم ، وبأمره مع ذلك ألا يعفل عن استطلاع أمرهم لإصلاح ما فسد منه » .

والتي كياسته يرجع الفصل في تعذب مبدأ من أسلم مبادئ القضاء قديمها وحديثها ، أخذ به رجال المسلمين في فصائلهم واتباعه الحكومات العصرية جميعاً في قصائدها ، ونعى به لبدأ الذي يحرم على القاضي أن يحكم بعلمه في إقامة الحدود ، وقد أثره الصديق عليه السلام فقال

« لو رأيت رجلاً على حدٍّ من حدود الله لم أحده حتى يكون معي شاهد غيري » ١ ،

وما حفظت له وصية قط إلا ظهر فيها حُفاه العالين ، الكياسة والصدق ، فإذا حذر الولاية أن يكشفوا عن أسرار الناس لم يس قط تحذيرهم من إخلاف الوعد والوعيد ، وجماع ذلك قوله لعكرمه « مهم قمت إنى فاعل فاعبه ، ولا تجعل قولك لعوا هي عقوبه ولا عفو ، ولا ترج إذا أمنت ولا تحائن إذا خوفت . ولكن انظر ماذا تقول وما تقول ، ولا تعدد معصية بأكثر من عقوبتها ، فإن فعلت أمنت وإن تركت كذبت » ٢ .

جرى حكمه كله على هذه السنة من الرفق والصدق ومن اليقظة والحزم ، ومن الكيس والفطنة ، لم تؤحد عليه إلا بادرة واحدة هي إحراقه الفجاءة في ساعة من ساعات الخلة التي كان يغالبها جهده ، حتى غلبته مرة في عقاب هذا اللص الخاتل السفاح .

وكان الفجاءة هذا أو إياس بن عبد ياليل - قد جاء الصديق فاستنعه بالسلاح لقتال المرتدين ، فلما أعصاه السلاح أحده ليقطع الطريق ويعيث في الأرض ويشحز فيمن صادفه قتلاً ونهباً من المسلمين كان أو المرتدين ، وتماقم شره وعظم بغيه حتى وقع في الأسر وجيء به إلى الخليفة وهو يرى أنه قد

استحق جزاء أكبر من جزء القتل لأن حرمه أكبر من جرم قاتل وقد استشاره
هذا الرجل بكل ما يثيره ويذهب بحلمه ورققه : استشاره بكذبه عليه وهو يمقت
الكذب ، واستشاره بخذاعه إياه وهو يكره أن يعيث به أحد ، واستشاره بتسحييره
في قتل المسلمين بما أعطاه من سلاح وعدة ، فأكسر جرمه بمقدار ما يكبر عهده
الصدق والكرامة والعيرة على دماء المسلمين ، وأمر به أن يلقي في نار توفده
في مُصلى البقيع .

خطأ ولا ريب ..

ولكنه خطأ له عذره ، وخطأ في رأى أبى بكر نفسه قد ندم عليه بعد فورة
العصب التي دهمت بحلمه ورققه ، وقد ظل يذكر هذا الخطأ ويأسف له إلى أن
قال وهو بحود بنقصه :

« وددت أنى لم أكن حرقفت العجاء السلمي وأنى كنت قتلته سريخاً أو
خليته نحيباً . . »

ومهما يكن من رأى الأقدمين أو المحدثين في هذا الحادث فالخطأ الذى لا
جدال فيه أن يدين به الإسلام كله أو يدين به أنا بكر كله في جميع حالاته
ففى كل عصر تقع الحوادث من أشياء هذا الحادث المفرد ولا تحسب على دين
أو دولة سواء فى العصر القديم أو العصر الحديث .

نما يحسب على الإسلام ما هو قاعدة من قواعده ، ويحسب على أبى بكر ما
هو سنة مطردة فى حكومته ، وما عدا ذلك فهو نبوة عارضة عذره فيها فداحة
الجرم وشفيعه فيها طول الندم ، فمن علا فى المؤاخذه حتى فتح من هذا الحادث
المفرد باباً للمقارنة بين عصر وعصر ، وبين حاكم وحاكم فقد أصاب إلى سوء
النية جهله بالعصر الحديث .

وعلى هذا يثبت من شاء هذا الحادث للحكومة أبى بكر ويحذفه من شاء
منها ، فلا ترال على الحالىين قدوة لأصلح الحكومات العصرية فى مزتين
حامعتين ، أحدهما إبطان المبادئ الصارة التى تفسد الحكومة على اختلاف
صفاتها وعساويتها ودعائها ، والثانية تقرير العناية التى لا تفضلها غاية الحكومة
إنسانية : وهى حرية الفرد ومصلحة الحكوميين .

الصديق والنبي وصعبه

سئل النبي ﷺ : يا رسول الله ! أى الناس أحب إليك ؟

قال : عائشة .

قالوا : إنما نعنى من الرجال ..

قال : أبوها .

وكان ﷺ يقول . ما لأحد عندي إلا وقد كافيتاه بها ما خلا أبا بكر ، فإن له بذلك يكافيه الله بها يوم القيامة .

ويفسر ذلك قوله ﷺ : ما أحد أعظم عندي يداً من أبى بكر : واسانى بنفسه وماله ، وأنكحني ابنته .

وكان عمر بن الخطاب يقول : أبو بكر سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله

ﷺ .

وهذه حقيقة لو لم يؤيدها لسان أفعال لا يدها ما يسمونه بلسان الحال . فإن أبا بكر كان ألزم الناس للنبي وأعرفهم سره وجهه وأقربهم إلى نقتة وحسن رأيه ، وكان النبي ﷺ يسمر عنده في شئون المسلمين ويركن إلى مشورته في كثير من الأحيان ، وإذا بلغ من شأن رجل أن يكون أحب الناس إلى النبي ﷺ فهو أهل له وأهل ثقته لا مرأى ، لأن هذا الحب في القفوس العظيمة قريب الثقة والتقدير لا يحلو منهما ولا يفصل عنهما - فمن استحق منها الحب الراجح فقد استحق عندها الثقة الراجحة في أن .

فلم يكن حب النبي ﷺ أبا بكر حب الرجل يجري به من يحبه ويخلص له ويوليه الحميل من ذات نفسه وماله ثم لا يريد . ولكنه كان كذلك حب الرجل من يستحق منه الحب لفصيلته وكفايته واقتداره على مهمته فيما تجرد له من عمل عظيم لا يضطلع به كل معين .

وحين قدمه للإمامة من بعده لم تكن وسيلته إليها حب الإخلاص والجرأ ، بل كانت وسيلته إليها حب الثقة والروية وحب الدعوة التي تحرد لها وحب المسلمين الذين آمنوا بتلك الدعوة ، فإن نبياً كمحمد ﷺ لا يجعل مستقبل ديه مكافأة لصدافة إنسان ، وإنما يكفل هذ للمستقبل لمن هو أهل لأمانته وأقدر على صيانته ، وهو من أجل ذلك أهل لـحب وأهل للثقة والادحار

أما حب أنى بكر محمد فهو كما قدمناه حب الإيمان والإعجاب والولاء ، وهو الحب الذى نهون فيه على اءء نفسه وماله وذروه ، ويمزعه من ماضيه ليستولى على حاصره كله وما هو أعز عيه من الحاضر وما فيه ، وهو الأمل فيما يشهد والأمل فيما وراء العيب ، بل الأمل فى حياة من تبيد

فمعد اللحظة التى انعقدت فيها الصداقة بينهما رضى الصديق الأمين أن يسحو فى سبيل هذه الصداقة بكل نفيس عنده وكل أثير لديه وأبقى ماله وفارق وطنه وأبائه وهاجر من مكة محاطراً بحياته ، فما همّه وهو محضوف بالخطر فى طريقه إلا صاحبه الذى معه يمدية به وسعه من فداء ، ليسفه نارة ويحلفه تاره أخرى ليدراً عنه الشر من حيثما توقعه واتقه ، ثم يقيم على هذا العهد ما أقام فى دنياه ، غير باحل بعريز ، ولا ناكص عن محدثور ولا نادم على مبدول أو مفقود .

ومن فضول القول أن يقال إنه أقام على عهده هذا بعد موت النبى ، كما أقام عليه طوال حياته ، فكل حركة تحركها وكل كلمة قالها شهيد بذلك له عند من ينصف ويعقل ، بل عند من يعقل ولو لم يكن من المنصفين .

إذ ليس من العقل أن يقدح قاذح فى ولاء الصديق لىبى بما حرم فاطمة رضى الله عنها من ميراث أبيها فلتى حرمها لـفد حرم عائشة مثلها ، لأن الأنبياء فى شرعة محمد لا يورثون ، وما أراد أبو بكر أن يصن بميراث محمد على وارثيه ومنهم بنته وأحب الناس إليه ، ولكنه أراد أن يضمن بدينه ويضمن بوصاياه ، وهى أولى أن تصان من المال ومن السين ، كذلك لا يقال إنه حرم علياً وهاشماً حقاً فى الخلافة ، فما كان فى وسعه أن يحرمه شيئاً لو كان ~~الصح~~ قد وصى به يشىء ، وما كانت فاطمة بعائبة عن سرير أبيها فى مرض موته

فيقال إنهم قد كتموا عن السى بعض ما قال ، ولا كان على بالدى يعوره
بمطلق لو أنه أراد السرهان من القرآن الكريم أو أراد الحجة من الحديث
الشريف ، ومن أين لأبى بكر تلك القوة التى ينتزع بها الخلافة انتزاعاً من آل
النبي ومن الأنصار ومهاجرين بغير حجة وبغير برهان ؟ لش استطاع ذلك غير
محتال ولا معتال ولا سافك دم لكى بذلك آية له أنه أحق المسلمين بولايه
أمر الإسلام وأقدرهم عليها ، وما استطاعه بعد ذلك من تثبيت الدين وقمع
الفتنه وافتتاح الدولة لهو الآية بعد الآية والتمكين فوق التمكين

لقد حدث بعد النسي ما لا بد أن يحدث ، وما ليس بكثير أن يحدث فى
موقف مقتضب لم يُمهّد له سابق متبوع ولا بقدر مأمومة ، فتأخر على
المبايعة أشهراً وقيل إنه لم يتأخر غير أيام بن ساعات ، فلا هو ولا أبو بكر صعد
ما يجب فى هذه الفترة طالت أو قصرت ، لأن أبا بكر كان يندب علياً للمهمات
فى حراسة المدينة وعلى كان يلجى مدينة أبى بكر تلجئة الصدق والنجدة ولو
صح أن أبا بكر أخفى حقاً بشيه إخفاؤه لما أقر على له ببيعة ، ولا رضى له ولا
لم بعده بصحبة ، فكيف لو صح ما تهوّن به بعض المتهوسين من إخفاء آيات
من القرآن أو كلمات من الحديث ؟

جهد ما يقال فى أحداث تلك الفترة أنها مدعاه أسف لا يؤسى عليه ، لأنها
أقل ما يؤسف له إلى جانب الغبطة التى يعتبط بها من أحاط بالموقف وأحاط
بدواعى الخطر فيه ودواعى السلامة منه .

أما عهده لعمر من بعده فلا محل لها للموازنة بين استخلاف عمر
واستخلاف على فى تلك الآونة ، ولكننا نقول إن الصديق قد جهد فى مسألة
العهد جهد رايه ، وإنه كان يود أن يكل الأمر إلى المسلمين يختارون من
يشاءون ، فجمع إليه نخبة من أهل الرأي وقال لهم فيما قال : « .. قد أطلق
الله إيمانكم من بيعتى ، وحل عنكم عقدتى ، ورد عليكم أمركم ، فأمرؤا عليكم
من أحببتكم ، فإنكم إن أمرتم بى حياة منى كن أحدر ألا تختلفوا بعدى »

فلم يستقم لهم أمر كما جاء فى رواية الحسن البصرى ، ورجعوا إليه يقولون : « إن
الرأى يا خليفة رسول الله رأيتك » فاستمهلهم حتى « ينظر الله ولدينه وعباده »

ثم استقر رأيه على استخلاف عمر بعد مشاورة عبد الرحمن بن عوف
وعثمان بن عفان وسعيد بن زيد وأسيد بن الحضير .

وسأل علياً فقال : « عمر عند ظلك به ورثك فيه ، إن وليته - مع أنه كان
والياً معك - نحظى برأيه ونأخذ به ، فامض لما تريد ، ودع مخاطبة الرجل ،
فإن يكن على ما ظننت إن شاء الله فله عمدت ، وإن يكن ما لا تظن سم ترد إلا
الخير » .

وأملى أبو بكر كتاب العهد على عثمان بن عفان فكتبه وختمه وخرج به
مختوماً وبأدى في الناس : أتبايعون لمن في هذا الكتاب ؟ ... ونيل إن أبا بكر
أشرف من كوثه فقال : « يا أيها الناس إني قد عهدت عهداً أفترضونه ؟ فقالوا :
رضينا يا خليفة رسول الله وقام على فقال : لا نرضى إلا أن يكون عمر » .

ثم كانت البيعة التي أجمع عليها المسلمون .



فالمسألة اللسان حسبنا من قبل الخلاف بين الصديق وعترته السي
عما هاتان المسألتان : الميراث والخلافة ،

ففي مسألة الميراث ما كان به أن يُرم فيها غير ما أبرم وقد علم أن النبي لا
يورث كما قال عليه السلام ، وكان حكم عائشة في هذا كحكم فاطمة رضي الله
عنهما ، وقد حضرته الوفاة وهو يوصي عائشة أن تنزل للمسلمين عما وهب لها
من ماله ، وأنه حلّ لها بالهبة والميراث .

وفي مسألة الخلافة لا محمد المجاملة حيث تكون المجاملة إحلالاً بالدمعة التي
فيه وبين ربه ، وإحلالاً بالوحدانية الإسلامية ومصالح المسلمين مجتمعين .

وفيما عدا هاتين المسألتين سم يكن من أبي بكر في حق فاطمة إلا أحسن
المجاملة والإحصال ، ولم يكن منه تقصير قط في العهد البيت النبوي بما يصون
وقاره ، ويحمي حوره ، بل كان منه في حق أهل البيت كل ما يُرضى ويرى

وجرى أبو بكر في معاملته لصحابة النبي على طبعه الذي فطر عليه ، وهو الرفق والمروءة والحياء فأحسن صحبتهم وأثبت لهم ما أئتمه النبي لهم في حياته ، ولم يكن منه في حقهم ما يشكونه إلا ما شكى منه بعضهم حين التسوية بينهم وبين العبيد والنساء في حصة بيت المال ، وذلك رأى له قدما حجته فيه ، فأقذارهم عند الله يجزيهم عليها الله ، وهذا معاش تحسن به المساواة بين الناس .

وكان أقربهم إليه وأحمتهم لثقتهم وحسن طنه عمر بن الخطاب : عرفه على حقيقته التي جهلها بعض الصحابة ، وعرف ما في باطن نفسه من رحمة تحفيها خشونة ملمسه وشدة في عمله فلما سأل عنه عبد الرحمن بن عوف أحابه : « إنه أفصل من رأيك فيه . ولكن فيه غلظة » فقال عن خبرة به : « هو كذلك لأنه يرأس رقيقا ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيرا مما هو فيه » .

وقد أثر أبو بكر أن يبقى عنه نخبة للصحابة في المدينة فلا يقصيههم في الولايات ولا يفرقهم بين الأقطار ، لأهم أحق الناس أن يستشيرهم ويرجع إليهم ويشركهم معه في رقابة العمال والولاة ، وسئل عن أهل بدر لم لا يوليهم عملا فقال : « أكره أن أؤسهم بالدنيا ، ولعله يريد بالتدريس تعريضهم لفتنة الدنيا وشهوة الحكم وغواية المال والمتاع .

ولا ندرى على التحقيق أي الصاحبين كان صاحب الفكرة الأولى في هذه السياسة التي اتفقا عليها ولم يحرفا عنها قط في عهديهما إلا لضرورة مادرة . ونعنى بها سياسة الإقلال من إسناد الأعمال إلى كبار الصحابة

فعمر كان مشتتدا في اتباع هذه السياسة حتى لم يخطر على البال أنه هو صاحب الفكرة السابقة فيها ، وكان أبو بكر يخالفها حيناً فيحاول عمر أن يردّه إليها قال : « لما خرج معاذ بن جبل إلى الشام أدخل خروجه بالمدينة وأهلها في لفقه وما كان يفتيهم به ، ولقد كنت كلمت أبا بكر رحمه الله أن يحبس الحاجة الناس إليه ، فأبى على ، وقال : رجل أراد جهادا يريد الشهادة فلا أحسنه ، فقلت : والله إن الرجل يبرزق الشهادة وهو على فراشه » .

إلا أن أبا بكر كان يحذر انصلاق بعض الصحابة محادثة الرجل الذي امتلأ
ببغين رأيه ولم يستمده من مشورة غيره . فلم ينس أن يحذر عمر هذا التحذير
في وصيته بإياه بعد استخلافه حيث قال

« واحذر هؤلاء السمر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين انتفعت أجواهم
وظمحت أبصارهم وأحب كل امرئ منهم لنفسه ، وإن منهم لحيرة عدو
واحد منهم ، فربما أن تكونه ، واعلم أنهم من يرأوا منك حائرين ما خفت
الله . . . »

وفص هذا الرأي من لسانه حين أحس من بعض المهاجرين ظمعا في
لاستحلاف دون عمر بن الخطاب ، فقال لعبد الرحمن بن عوف وقد دخل
عليه يعوده

« ما لقيت منكم أيها المهاجرون أشد عني من وجهي ، إني وليت أمركم
حيركم في نفسي ، فكلكم ورم أنفقه أن يكون له الأمر دونه ، ورأيت الدنيا قد
أقبلت ، ولما تبطل ، وهي مديدة حتى تتحدوا ستور الحرير وبضائد الديباج وحتى
يألم أحدكم بالاصطجاع على الصوف الأدرسي^(١) كما يألم أحدكم إذا نام على
حسك السعدان . والذي نفسي بيده لأ أقدم أحدكم فيضرب عنقه في غير
حد يحير له من أن يخوض غمرات الدنيا . ثم أنتم غدا أو ضال بالماس يميننا
وشمالا ، لا تصيغوه عن الطريق . يا هادي الطريق جرت ! »

فهذا كلام رجل ممتلئ لنفسه باليقين مما يقول ، فليس هو برأي نتقل إليه من
غيره استحسنه وارتضاه ، ولكنه - فيما ترجح - رأى اتفقا عليه وقلبا بينهم
فازداد كل منهما يقينا به فوق يقين .



على أن هذه النصائح القوية بين يدي الموت تكشف من حياة أبي بكر ما
لست تكشفه الأحبار المطولة والأقوال المستفيضة ، فهي تشهد له أنه قد سر

(١) مسود إلى أدريجان

في حياته تلك السيرة التي يريدنا من الصحابة ويحث عليها أباساً هي منزلة
عبد الرحمن بن عوف وعمر بن الخطاب ، وأن تلك السيرة كانت من المدائنة
المعروفة التي يصدر عن صاحبها النصيح فيسمعه أمثال هذين الصحابين
الكبيرين . وقد كانت هذه في الواقع منزلة أبي بكر بن الصحنه عامة
وخاصة : استحقها بسببهم بسابق سلامه وقديم صحبته للسبب صلوات الله
عليه ، واستحقها برياضة نفسه على الكرامة والوقار حتى امتلأت النفوس
حوله بكرامته ووقاره ، ولم يكن أحد غير أبي بكر يسكت عمر بن الخطاب
وقد ثار ثورته بعد موت السبي ، أو يسكته وقد بهض للكلام أول مرة في
سقيفة بني ساعدة ، وما أنسكته يومئذ لأنه حليفة فما كان يومئذ بالخلقيفة ولا
كان عمر بالبدى تسكته همبة منصوب أو سطوة سلطان ، ولكنه رجل وقور
يسمع له رجل حي وباهيت عن يهانه عمر بن الخطاب ، أنه لأحق امرئ
بين الصحابة أن يهاب .

ثقافته

تُعرف ثقافة الرجل المثقف بعلامات كثيرة ، ولو لم تكن لها بالفكرة والاطلاع صلة ظاهرة

وتلتر أن يظهر من الإنسان أن محسوس إلا كان فيه علامة من العلامات على نصيبه من ثقافة زمانه .

على أن هذه العلامات تتعدت في الدلالة كما تتفاوت في القيمة ، وأدائها وأقومها - فيما يرى - كلام الإنسان ورايه في كلام غيره . لأن الكلام صورة نفسية وقدرة عقلية في وقت واحد . فهو يكشف عن نفس قائله كما يكشف عن قدرة عقله ومبلغ عرفانه بتصوير حلجات قلبه وخطرت ذهنه ، فتقديره للكلام وكلام الناس ميران صادق لتقدير الرجل في جملة أحواله وأفعاله ، وعلامة على الثقافة الروحية والعكرية قلما تضارعها علامة أخرى .

وتقدير الكلام من أصدق العلامات على ثقافة الصديق ، سواء نظرنا في وزنه للكلام أو في وزنه لكلام غيره ، أو في وزنه للكلام عامة من حيث هو جرة من « الشخصية الإنسانية » يحرص عليه المرء كما يحرص على مصومات نفسه .

بالصديق كان أحرص الناس على كلام يسدر من لسانه ، وكان أعلم الناس بموضع كلام الراحل من مروه ته وشربه ، فكان قوله برراً ، ووصيته بالإقلال من المقام أسبق وصاياه إلى ولاته وعماله .

قال لخالد بن الوليد :

« أقل من الكلام فيما لك ما وعى عنك » .

وقال ليزيد بن أبي سفيان :

« إذا وعظتهم فأوحز ، فإن كثير الكلام يسى بعضه بعضاً »

وكان يقول « إن البلاء موكل بالمنطق ، ويحتمل التزيد في المقال كما يحتمل التعرض للبلاء .

كان أقرب الصحابة إلى النبي ﷺ وألزمهم له في بهاره ولبينه ، ولكنه على هذه الملامة لم يرو من الأحاديث النبوية إلا بيئاً ومائة وأربعين حديثاً لم يتجاوز ما أثبتته البخاري ومسلم نحو مئتيها .

وقيل في تعليل ذلك إنه ﷺ مات قبل تدوين الأحاديث

وهو تعليل يُرد عليه أن كثيراً من سمعوا الأحاديث النبوية ماتوا كذلك قبل الاشتغال بتدوينها ، وإى هي فئة كلامه فيما يرى أفلت ما سمع الناس عنه فحرروه ونقلوه .

ذلك وزنه للكلام عامة من حيث هو عبكة نفسة وجرة من الشخصية الإنسانية

أما كلامه هو فمن أرحح ما قيل في موارد الكلام ، سواء في ذلك موارد البلاغة أو موارد الخلق والحكمة ، وله من جوامع الكلم أمثلة نادرة مثل الوحدة معها على سكة صاحبها فيعنى العليل منها عن الكثير كما تعنى السسلة الواحدة عن الحرين الخافل ، حين تكون لمسألة مسألة الدلالة على المسبب والنبات

وحسبك أن تعلم معدن القول من نفسه وفكره حين تسمع كلمة كقوله « احرص على الموت توهب لك الحياة » .

أو قوله « أصدق الصدق لأمة وأكذب الكذب الحياة » ،

أو قوله : « خير الخصلتين أيعصهما إليك »

أو قوله « الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله » ،

أو قوله « إذا فاتك خير فأدركه وإن أدركك فاسقه » ،

أو قوله « لا تحزل عن المشير حبرك فتؤتى من قبل نفسك » ،

أو قوله : « ليست مع العراء مصيبة » .

فهى وما أثر عنه من أمثاله كلمات تتسم بالقصد والسداد ، كما تتسم
بالبلاغة وحسن التعبير ، وتنبئ عن المعدن الذى نجمت منه فتعنى عن علامات
التشقيف التى يستكثر منها المستكثرون ، لأن هذا انفهم لأصيل هو الباب
المقصود من التشقيف

وكانت له يفيض لباقة فى الخطاب إلى حاسب هذه البلاغة فى الكلام ، وهذه
لجد فى وزن المقال .

عزى عمر فى طفل احتسبه فقال له :

« عوضك الله منه ما عوضه منك »

وسأل رجلاً يحمل ثوباً :

أتبيع هذا الثوب ؟

فأجاب : لا . . . عافاك الله !

« هلاقت : لا وعافاك الله !

وهذا تمام النصر بالكلام ، قصد فى العبارة ، ووزن للكلام ، ودوق فى
الخطاب ، ولا تتعرف النفس المثقفة إلى السأى أية هى أقرب من هذه الآية
وأحق منها بالتصديق .

ومن السهل على من يملك هذا السأى فى كلامه أن يتتبع شواهد البيان فى
كلام الآخرين .

ولعل الصديق قد ملك هذا البيان لأنه طبع عليه وطبع على حبه فتتبعه فى
كلام البلغاء من الخطباء والشعراء .

فكان يروى الشعر ويحفظ الأمثال ويراجع السى المتخذ فى الأبيات التى
سدل مواضع كلماتها لينخرجها عن ورنها ، ومنه - لا ريب - قسمت السيدة

عائشة ذلك القبس من ماثورات الشعر والخطب - فيما كانت تتحمله وترويه ،
واليه ترجع السليقة التي ظهرت في ذريته ومنهم ولداه عبد الله وعبد الرحمن
وكانا ينظمان الأبيات بعد الأبيات .

وهو نفسه لم ينظم الشعر فيما أجمع عليه الثقات ، ولكنه - وإن لم ينظم
قريب السليقة من قالوه ولو بالتذوق والحفظ والرواية .

ولهذه الثقافة مراجعها التي ترجع إليها أفصل ثقافات زمانه في الجزيرة
العربية

طبع سليم وملاحظة صادقة وحيرة بالدينا من طريق المعاملة والسياحة ،
واصفاء إلى الحس من الفول ، والوثيق من الأحبار ، وعلم بالأسباب والتواريخ
مشهور بين المشهورين من أربابه ، واستيعب للقرآن كله ولفقه الدين كله ،
ودراية بما استوعب من معانيه عن مهم وعن سمع عن نزل عليه القرآن الكريم
صلوات الله عليه .

قرأ يومًا :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَنُيْكُمْ أَنفُسِكُمْ لَا يُضَرْكُم مِّنْ هَلٍ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ . ﴾

فقال :

إن الناس يصنعون هذه الآية في غير موضعها ، ألا وإني سمعت رسول الله
ﷺ يقول :

« إن القوم إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، والنكر فلم يغيروه ، هم
الله بعقابه . »

وسأل أصحابه يومًا :

ما تقولون في هاتين الآيتين .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ... ﴿٢﴾

قالوا : لم يلبسوا إيمانهم بظلم الخطيئة .

فقال : لقد حملتموها على غير الحمل : استقاموا هم يلبسوا إيمانهم بشرك
وإن فقه القرآن ليُنبوع يستمد منه الصديق في سلامة طبعه وصفاء ذهنه
مدداً يرجع بأمداد .

فشقافته في زمانه هي ثقافة المقيم الأدب المورخ بما اصطلاحه عليه من معنى
التاريخ في ذلك الزمان .

ولا يتشبه معنى التاريخ عندهم ومعنى التاريخ عندنا كما تتوسع فيه اليوم ،
ولكن السبب الذي يعلمه الصديق كان هو النسب المحيط بالمحامد والمثالب في
القائل العربية كافة ، وهو أنفع ما في علم التاريخ حين يراد بعلمه الطموح إلى
منزلة الحمد والسمعة الرفيعة والنزاهة عن معارض الدم وقالة السوء ، وكذلك
كان علم الصديق بأسباب العرب أجمعين . .

لما خرج النبي ﷺ ليُعرض نفسه على القبائل في أول الدعوة الإسلامية
كان معه أبو بكر وعلي بن أبي طالب أسبق الناس إلى الإسلام
قال علي بن أبي طالب :

« عرفنا إلى مجلس من مجالس العرب ، فتقدم أبو بكر فسلم ، وكان مقبلاً
في كل حين ، وكان رجلاً نسيبه فقال ممن القوم ، قالوا : من ربيعة ، قال : وأي
ربيعة أنتم ؟ أمن هاماتها أو من لهازمها ؟

قالوا : من هاماتها العظمى

قال : وأي هاماتها العظمى أنتم ؟

قالوا : من ذهل الأكبر ،

قال : فمكم عوف بن مُحَلَم الذي يقل فيه : لا حُرَّ يواذي عوف ؟

قالوا : لا .

قال فممنكم المزدلف الحر صاحب العمامة الفردة ؟

قالوا : لا .

قال . فممنكم بسطام بن قيس أبو القرى ومهني الأحياء ؟

قالوا : لا .

قال : فممنكم جساس بن مرة حامى الدمر وماع الحار ؟

قالوا : لا .

قال فممنكم الحوزان قاتل الملوك وسلب أنسها

قالوا : لا .

قال : فممنكم أصحاب الملوك من كتندة ؟

قالوا : لا .

قال . فممنكم أصحاب الملوك من لحم ؟

قالوا : لا .

قال أبو بكر :

فلمستم ذهلاً الأكبر - إنما أنتم ذهل الأصغر ؟

وكان هذا علمه بأسب كل قبيلة ومحمد السابقين منها ومثالمهم ولا سيما
بريش ومن جاورها . ولهذا كانوا يقولون كلما سمعوا آياتاً من الشعراء المسحيين
يردون بها الهجاء على أشركين :

هذا تدفين ابن أبي قحافة وما عده . لأنه كان في هذا العلم بين قريش عامة
بغير نظير

وبحق لا نستطرد بداهة من كل رجل تيسرت له هذه المراجع أن يطلع من
الثقافة مبلغ أبي بكر الذى تدل عليه أقواله وأعماله وحلائقه وسحاباه ولكننا
إذا علمنا أن تلك مراجعه وأن ذلك مبلغه فقد علمنا شيئاً آخر بقصده وتنجراه .
وهو أنه رجل خلق من معدن العظمة والامتيار . ولم يخلق رجلاً كسائر الرجال

الصدِّيق في بيته

من السهل بعد مراجعة يسيرة لحياة الصديق في جملتها أن نعلم أنه « رجل بيت » أو « رجل أسرة » وأن أواصره البيتية لا تستند إلى الشعور بالواجب وحده ، ولكنها تستند مع الشعور بالواجب إلى الشعور بفبطة القرابة ومودة لرحم وسعة لألفة والمصاحبة ، فلم يكن ولذا نازلاً لأن البر بالآباء واجب وكفى ، ولا أباً رحيماً لأن الرحمة بالأبناء عريضة وكفى ، ولا زوجاً وفياً لأن الرماء للأهل واجب وكفى ، ولكنه كان كذلك كما كان في جميع أواصره وعلاقاته :

رجلاً يشعر بالعطية في جوار أساء حسه ، ويأس للصحة في حو الشعراء والأصدقاء ، ويتجلى فيه خلق الإنسان « الاجتماعى بطبعه » على أحسنه وأوفاه .

عُرف بره بأهويه في لجاهلية ، فلما أسلم وصاحب السبي ^{الطاهر} جمع بين بر العطرة والحدن وبر الواجب والفريضة ، وأطمأن إلى هذا البر كما يطمئن صاحب خير الذى لا حزاء عليه أن يصبح وله من أخطوه الإلهية أجمل جراء وعرف عطفه على أنائه طوال حياته ، فما داخنته في عطفه عليهم فسوة أو شدة إلا أن يكون ذلك بدافع من العقيدة أو رارع من التأديب .

قال له بعض أبائه - وقد كان يقاتل مع المشركين

إنتى كنت أراك فأتحاماك

فقال له : لكنتى لو رأيتك لما تحاميتك

وكان بين عائشة والسى كلام . فسألها .

من ترصين أن يكون بسى وبيتك ؟ أترصين بأبى عبيدة بن الجراح ؟ قالت :

لا . قلت رجل هين يس يقضى لك . قال أترصين بأبيك ؟

قالت : نعم .

ولما جاء أبو بكر قال رسول الله : اقصصى !

فقالت : بل اقصص أنت .

فأحد رسول الله في إعادة ما جرى بينهما من كلام ، وسرت من عائشة
كلمة لا تعيها فقالت : اقصد ، أى التزم القصد ولا ترد في الرواية ، فرقع أبو بكر
يده فبطنها وانتهرها معصياً - تقولين يا بنت أم رومان . اقصد ! من يقصد إذا لم
يقصد رسول الله ! وجعل الدم يسيل من أنفها ورسول الله يحجز بينهما ويقول
لصديقه إنكم ترد هذا حتى انصرف برضى رسول الله فقال لها ما معك
رأيت كيف أبعدك الله مني ! أو قال مثل هذه المناسبة : رأيت كيف أنفدتك من
الرجل ! »

ففي هذا وأمثاله يشتد أبو بكر على بنيه وهي شدة قد تقرون بالرحمة ولا
تحجبها إلا إلى حين

وكان لصدق شعوره بالأبوة يحس ما يحتاج إليه الوليد في نشأة الطفولة
ويرويه تلك الحاجة ولو أعصب الآباء وهم عنده أصدق الأصدقاء .

فلما أحد عمر بن الخطاب أنه عاصماً من أمه المطلقة تخاصم إليه فقضى
بالوليد لأمه وقال لعمر :

« ربحها وشمها ولطفها خير له منك » . فكان غاية الرحمة وعناية العدل في
أن ، وإن رحلاً يعدل حين يهتم بأخوة عمر فهو من العدل بمكان لا يُسامى

وكادت الصداقة عنده أن تكون أحوة أو بؤة فكان يتحدث عن عمر يوم
فإذا هو يقول كأنما يتحدث إلى نفسه :

« والله إن عمر لأحب الناس إلي »

ثم حشى أن يكون في قوله ما يمس الصدق الذي فطر عليه فقال من معه
وفيهم عائشة .

كيف قلت ؟ فأعادت له عائشة ما جرى به لسانه ، فاستدرك قائلاً : اللهم أعز والوئد الوئد ، أى ألصق بالقلب وأدبى .



وقد بنى أبو بكر بزوجتين فى الجاهلية وزوجتين فى الإسلام ، متهم أم رومان وهى أم ولديه عبد الرحمن وعائشة رضى الله عنهما ، ومنهن حبيبة بنت حارثة التى مات عنها وهى حامل ، فولدت بعد موته أم كلثوم .

ومن أولاده غير عبد الرحمن وعائشة عبد الله الذى كان يأتيه بأخبار قرش حين هاجر مع النبى إلى المدينة وقد حرج بالطائف ومات بجرحه بعد انتقاصه . وكانت فيه شجاعة وأدب ورقة ، وله شعر حسن يروى بمصه فى زوجته المطلقة عائكة بنت زيد وقصته معها من أدل أخبار هذه الأسره على شعور أبى بكر بالأبوة والزوجية والواجب من وقت واحد ، وأن معالية بين الرحمة والواجب فى نفسه كانت معالية سجال .

وقد كانت عائكة من أشهر نساء عصرها بالجمال والعقل والفتنة ، فعس بها عبد الله وشعل بها عن مصالحه وشتره ، فصيح له أبوه بطلاقها فطلقها ، وما زال حتى ندم وألح به المسلم على فرائها ، وقال من شعره فيها

أعانتك ، لا أنساك ما فر شارق	وما لاح نجم فى السماء محلق
أعانتك ، فلبى كل يوم وليلة	لديك بما تنهى النفوس معلق
لها خلق جزل ورأى ومتصب	وخلق سوى فى الحياء مصدق
ولم أر مثلى طلق اليوم مشها	ولا مثلها فى غير شىء تطلق

مرحمه أبوه وأمره بمراجعتها ، فراجعها . فكان أبو بكر فى هذا نموذجاً مقابلاً لنموذج عمر فى هذه الناحية من الخلاق والوشائج القلبية ، كما كان نموذجاً مقابلاً له فى خلائل شتى ووشائج أخرى . إذ كان عمر يعنى على ولده أنه عجز عن طلاق امراته ، وبعد ذلك من مأخذه حين رشحه بعضهم للخلافة بعده .

ولم يكن لزوجات أبي بكر ما يشتكيه منه غير الإقلال من النفقة والقصود في المعيشة ، ففي اليوم الذي اجتمعت فيه مساء النبي ﷺ يطالبونه بالمزيد من النفقة كانت بنت خارجة زوجة أبي بكر تطالبه هذه المصالبة ، فيغضب منها ، ويلوى عنقها ، وينهب إلى النبي فيحدثه بحديثها ليسرى عنه وقد رآه بين أعيان المسلمين على مثل تلك الحالة فكأنما كن جميعاً على ميعاد

ولم يكن أبو بكر مقلداً من المال ، ولا عاجزاً عن كسبه قبل الخلافة ولا بعده ، فقد أنفق في سبيل الإسلام أربعين ألف درهم ، وما زال ينفق من ماله في شراء الأكسية والأطعمة وتوزيعها على الفقراء ولا سيما في الشتاء ، ولكنه أثر متاع روحه على متاع حسده وكره أن يعيش في بيته حزيناً من سبه وصعبه ، وكان مخلص السرف فيقول :

« إني لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيام في يوم »

فلو بقي له من المال ما يجاور به حظه من النفقة لما جاوره وهو يرى أمامه مثل السبي ويحب أن يكون مثلاً لمن معه ومن بعده من حلفاء الإسلام وعمامة أتباعه

وقد تعددت الروايات عما قسم له من الرزق بعد الخلافة وكيف قسم عشوره من حصر من حدة الصحابة ومنهم عمر وعثمان وعبي وأبو عبيدة . ولكن لروايات متممة على قصده في بيته واجتنابه للسرف في معيشته ، وأنه كما قال : « لم يعد سد الجوعة ورزى العورة وقرنة القوام »

ومات وليس عنده مدخر يذكر ، فقال عمر

« رحمه الله . لقد أحب من بعده » يريد أنه ألزمهم قدوة تتعب ولا تريح

وحسب أن الشاة في حياة أبي بكر البيتية لا تتمثل في شيء كما تتمثل في شاة بنتيه عائشة وأسماء رضي الله عنهما ، فأما عائشة فقد فارقت بيت سيها وهي في نحو العاشرة أو أكثر من ذلك بقليل كما استخلص بعض المؤرخين من مراجعة التواريخ الكثيرة فإذا هي في تلك السن قد رعت ما وعته

من الشعر البليغ والأمثال السائرة والأخبار السائرة ، وقد بصحت لمصاحبة السي
ولموى عنه والدرية بالمأثور من كلامه ، وكانت بعد ذلك مرجعاً من مراجع
العقده والسنة خليقاً باعتماد الثقات الأجلاء .

ومن الناس من تعود أن يتخيل عائشة رضى الله عنها جارية صغيرة حظت
عند زوجها ~~الطيب~~ لجمالها وصغرها وصداقة أيها ، ولكنها - ولا ريب - لم تلح
هذه الحظوة عند صلوات الله عليه إلا لأنها الروحة الكف ، لبلوغها والحفاظة
عليها ، وكانت تعرف من أدب الزوج ما يجعل مكانها ، وتعرف من ملاطفة
الروح مداخل قلبه ومواطن رصده ، وربما دلت روحها ولم تترك به وحده مسرة
تدليلها . فمن ذلك في روايت تختلف في النقل وتتفق في هذا المعنى أنه كان
~~الطيب~~ يصلح بعله في يوم قائط فتدعى جسيمة وتحدث العرق على حله ، وهي
تلحظه من قريب وكأن بها وجداً عليه . فسألها .

ما لك بُهت ؟

فكانت لو رآك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بقوله

فعاد يسألها : أى قوله ؟

فأجابته : حين يقول .

ومبراً من كل غُبر حبصة وفساد مرصعة ودا ، معيل
لدا نظرت إلى أسرة وجهه برقت بروق العارض لمتهلل

فقدم النبي إليها يقبل ما بين عينيها ، ويقول لها سرورسى يا عائشة
صرك الله .

وهي أبعد شيء عما يتصوره المقاد لأوربيون حين بصورتها بقرائهم لعبة
صغيرة بين يدي رجل كبير يدلها ولا تفاهم بينه وبينها ، ولكنها الزوجة التي
تكافى الزوج في حيانه المنزلية ، والمرأة التي سادل الرجل ما عده من شعور ،
والتلميذة التي تتلقى عن أستاذ عظيم فتحسن لتلقى عنه ، وهي من جميع
هذه الجوانب مثل صالح للنشأة البيتية في أسرة الصديق

أما أسماء - ذات النطاقين - فما حمد الناس فضيلة للمرأة بنتاً وروحاً ووالدة
إلا كانت فيها على أجملها وأسمائها وأحفها بالتمجيد والإكبار .

أسلمت مع أبيها ، وكانت تخاطر بنفسها لإخفاء هجرته مع رسول الله
وترديدتهما بالطعام والميرة في تلك الهجرة ، ولم تجد ما تشد به معامهما عشقت
نطاقها وشدته به ، فسميت لذلك ذات النطاقين

وتزوجت الربير بن العوام وليس له مال ولا مورد ، فكانت تلطف فرسه وتدنق
النوى لتناضحه^(١) وتستقي له الماء وتخز^(٢) له عربه^(٣) وتنقل النوى على رأسها من
الأرض التي أقطعها إياها رسول الله على مسيرة ميلين وما زالت كذلك حتى علم
أبوها بمشقتها في خدمة زوجها اتفاقاً فأعانها بخادمة ، بعد أن قصت زمناً تخدم
بنتها وهي بنت أبي بكر وروح الربير وأم عبد الله من أعظم أبطال الإسلام

وحوصر بنها عبد الله في مكة فحذله الناس حتى أهله وولده ، وعرض عليه
بنو أمية الأمان والولاية والمال فذهب إليها يعرض عليها أمره ، وهو يقول .
« .. لم يبق معي إلا اليسير ومن لا دفع عنده أكثر من صبر ساعة من النهار ،
وقد أعطاني القوم ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟ »

فما صغفت من الهول ضعف النساء ، ولا ضعف الأمهات ، وإن الأبطال
الصناديد ليضعفون في مكابها ، فلا يعدمون المعذرة الناهضة والشفاعة المقبولة ،
بل ملكت جاشها وملكته بجاشه وأقبلت عليه تقول .

« يا ولدي ! إن كنت على حق تدعو إليّ فامض عليه ، فقد قتل عليه
أصحابك ، ولا تكن من رقبتهك خلعتك بنى أمية ميتعبروا بك ، وإن قلت إني
كنت على حق فلما وهن أصحابي صغفت نبتى فليس هذا فعل الأحرار ، ولا
فعل من فيه خير . كم خلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن ما يقنع به يا ابن
الربير والله لضربة بسيف في عر أحب إليّ من ضربة بسوط في ذل . »

والتفتت تدعو الله كأنما تناجي نفسها :

(٢) الدوس ١ جلد

(٣) تخرر تنقب

(١) السير الذي يستقي عليه ماء

« اللهم ارحم طول ذلك الحبيب والظما في هواجر المدينة ومكة ، وبره يامه ا
اللهم ابي سلمت فيه لأعرك ، ورصيت فيه بقصائلك ، فأثبني في عبد الله ثوب
الشاكرين »

مقالة أم جاوزت امانه واصطلحت عليها الملهمات وكف بصرها من الحزن ويشتت
من بصرة اسها ومن حياته في جهاده ، فاهضت من السن والمرضى والخوف والشكل
في أخرج الساعات ما تنوء به عرائم الأقيال وتنهله أركان الجبال

ثم غلب القوم ابنها المقدام فصيلوه ورفعو جثته للشمش والتفهير ، فألمها أن
يصاب في كرامة موته كما ألمها من قبل أن يصاب في كرامة حياته

وذهبت إلى الحجج تسأله في ذلك سؤال لأعزاء ، فقددها الدليل إليه حتى
وقمت على مقربة منه تقول

أما أن لهذا الراكب أن ينزل ؟

قال في غير رفق ولا حياء : المافق ؟

فما همها وهو صاحب طلبتها أن يجيبها أو لا يجيبها ، وإنما همها أن تدفع
عن ولدها وأن تجرى الشاتم شتمه ، وقالت معصية :

والله ما كان منافقاً ، والله ما كان منافقاً ، وقد كان صواماً قواماً . . .

فما جعلها مغيطاً من ردها عليه :

ادهبي فإنيك عجزود قد خرفت . .

قالت :

لا والله أما خرفت ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول

« يخرج من تقيف كذاب ومير^(١) فأما الكذاب فرائده ، وأما المير فانت هو »

وهذه هي الأم التي يشرف بها لأساء والأباء ، وتشرف بها سلالة آدم
وحواء .

(١) مير : مهت

هذه أسماء بنت أبي بكر

وتلك عائشة بنت أبي بكر

فما عسى أن يقول القائل وأن يشتكى المشى على بيتٍ يعجب هاتين لعفيلتين
الكبريتين ؟

لقد كان لأبي بكر أبناء من نخيرة الرجال .

ولكن البيت تدل عليه نياته قبل أن يدل عليه أبنائه . لأن الفضل في
شأتهن كلها لبيت ، من حيث يحسب لغير البيت الفصل هي شاة الأسماء .

وذلك هو بيت الصديق ، أكرم به من بيت أبي حمصت الأرض كلها من
بيوت .

صورة مُجَمَّلة

فأنت السيدة عائشة في وصف أبيها وقد تناوبه بعضهم بما أغضبها

« سبق إد ونيتم سبق الخواذ إذا استولى على الأمد ، متى قرش ناشئ وكهفها
كهلاً ، يفك عانيها ويرش عنقها ، ويرأب شعها ويلم شعها ، حتى حلتها فلوبها ، ثم
استشرى في دين الله عما برحت شكيمته في ذات الله عز وجل . » .

وكان نمر من المهاجرين والأنصار يتذاكرون فضائل أهل الفضل عند باب
النبي ﷺ ، فخرج عليهم النبي فسألهم :

فيم أنتم ؟

قالوا : نتذاكر الفضائل

فقال . « لا تقدموا على أبي بكر أحدا فإنه أفضلكم في الدنيا والآخرة »

ومن قوله فيه ﷺ . « أبو بكر خير الناس إلا أن يكون بهي » .

وقال على ﷺ في تأيينه :

« ... كنت كالجبل الذي لا يحركه العواصف ولا تربله القواصف كنت
كما قال رسول الله ﷺ ضعيفا في يديك قويا في أمر الله ، متواضعا في نفسك
عظيما عند الله ، جليلا في الأرض كبيرا عند المؤمنين ، ولم يكن لأحد عندك
مطعم ، ولا لأحد عندك هوادة ، فالقوى عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه ،
والضعيف عندك قوى حتى تأخذ الحق له ، فلا حرمنا الله أجرك ، ولا أصلنا
بعذك . . . » .

وفي هذا التمدد كناية إذا عمدنا إلى الشاء الذي قاله فيه عارفوه

ولكننا في أمر أبي بكر وأمثاله نستطيع أن نتجاوز الثناء إلى مقالة الأعداء
الألداء ، ونحن آمون أن نسمع فيه ما يقصر من فضله ويقصر شيئاً من حقه .
إذ ليس على عظيم من العطاء غصاصة أن يختلف فيه مختلفون ، وأن يتأول
أعماله متأولون ، فكل عظيم من عظم الدنيا قليل له وقيل عليه ، وحسب
نيات قوم نحوه وساءت نيات آخرين ، فليس هذا بصائره ، وليس هذا بمعجيب ،
وإنما الميزان العادل في الحكم له أو عليه دليل القائل وليس مقال القاتل . فمن
شاء أن يزعم ما يشاء فيمن يشاء ، ولكنه لا يوضع في الميزان إلا بديل تؤيده
الوقائع والأعمال . فهذا الذي يحسب من مقال القائلين ومن خلاف المختلفين .

فليست نصيلة أبي بكر أنه ظفر من الناس جميعاً بالثناء لدى لا معقب
عليه ، إذ ليس هذا بممكن وليس هذا بمعقول ولا بمطوب

وإنما نصيلته أنه ظفر بالثناء عن في ثنائه صدق وثنائه قيمة وأن خلاف
المتحالفين لم يقم قط على دليل ولم يأت قط من أناس يحسنون ما يقولون

وكل حكم على أبي بكر مؤيد بدليل معتمد على واقع ، فهو مصوره في
صورة عامة واحدة لا شك فيها ، وهي صورة أمين ، وأكثر من أمين . لأنه لم
يتهم قط بحيانة في الجاهلية أو في الإسلام

وأكثر من الأمين ، لأن الأمين هو الذي يعطى حق غيره ، فأما الذي يعطى
الأمانة ويزيد عليها ، أو يعطى حق غيره ويعطى من حقه الذي لا يطلب منه ،
فذلك هو المفضل الذي جاوز قدر الأمانة ، فهو أكثر من أمين

وكان أبو بكر يؤدي الأمانات في الجاهلية ويزيد عليها من عنده فصل الفصل
وأحسن المحسن وإعانة المنيث .

ثم تسلم لأمانة الكبرى بعد الخلافة فترك الدنيا وقد أداها كما هي زاد عليها
ولسنا غاليين في العجز حين نقول إنه صنع مثل ذلك في أمانة الحق أو أمانة
الحياة ، فعات حيراً بما ولد ، لشأ صغيراً في يده كما قال رسول الله ، فإذا هو

يستمد من قوة باطنه لقوة ظاهره ، ويلقى من مروءته على مرآه ، حتى أنشأ من نفسه ما لم ينشأ من بدنه ، وبلغ من المهابة بالقوة التي زادها على تكوينه الظاهر فوق ما يؤتاه أمثاله في أمثال هذا التكوين .

للناس أن يعطوه وهم على ثقة إن يستردوا ما أعطوه وزيادة ، وللمحياة أن تعطيه وهي على ثقة ألا ينقص عطاؤها وألا يزال معه في ازدياد ، وعلى كل أمانة عنده كائنًا ما كان معطيها حق مصون ، ومزيد مضمون .

صورته المجلبة أنه الأمين وأكثر من الأمين . .

الأمين في الصداقة ، والأمين في الحكومة ، والأمين في السيرة ، والأمين في المال ، والأمين في الإيمان ، ثم هو في كل أولئك أكثر من الأمين .

عصمته المواقف من فتنة الغواية فولد كريمًا تعنيه العزة بين الأقوياء ، ولا يعنيه الطغيان على الضعفاء .

وكبير وليس له مارب في سيادة باغية ، ولا في صولة دائمة على من لا يريد لها ولا يطمئن إليها .

وكبير في تكوينه حدة الشعور وحماسة اليقين ، وسليقة الإعجاب ، وعصمة المروءة والوقار .

وكبير وكل فضيلة فيه تكبر إلى أمادها ، فلما مات كان أكبر ما كان ، وأكبر ما يتأني أن يكون . .

مات وهو صاحب الدعوة الثانية في الإسلام ، فكان الثاني حقاً بعد النبي ﷺ في كل شيء ، من قبول الإسلام إلى ولاية أمر الإسلام إلى تجديد دعوة الإسلام ، بعد أن نقصت الردة دعوته الأولى وأوشكت أن ترجع بها إلى الجاهلية الجاهلاء .

ثاني اثنين ، وأول عقيد وأول مجيب . .

ذلك موضعه في تلك الدعوة الإنسانية التي نشأت في أمة واحدة ثم غيرت

ما بعدها في جميع الأمم ، سواء منها من علم ومن لم يعلم ، وهي دعوة صديقه
وصفيّه ونبيه محمد صلوات الله عليه .

قبل إنه مات بالسم في أكلة أكلها قبل عام من وفاته ، وليس لهذا القول
مرجع يميل الباحث إلى تصديقه .

وقيل إنه مات بالحمى لأنه استحم في يوم بارد ، وقد مات في شهر قائل^(١) كما
يظهر من مضاهاة الشهور العربية على الشهور الشمسية ، فليس لهذا القول سند صحيح .
وأغلب الظن أنها حمى المستنقعات « الملاريا » التي أصيب بها بعد الهجرة
إلى المدينة ، ثم عاودته في أوانها مرة أخرى وهو شيخ ضعيف ، فجددت
الإصابة الثانية عقابيل الإصابة الأولى ، وانتهت حياة بلغت نهايتها في حيز
الجسد ، وفي حيز المجد ، وفي حيز التاريخ .

(١) أنطس ،

فهرست

٣	تقديم
٩	اسم وصفه
١٣	الصديق الأول والخليفة الأول
٣١	صفاته
٤٥	مفتاح شخصيته
٦١	نمذجان
٧٣	إسلامه
٩٥	الصديق والدولة الإسلامية
١٢٥	الصديق والحكومة العصرية
١٣١	الصديق والتبى وصحبه
١٣٩	ثقافته
١٤٥	الصديق فى بيته
١٥٣	صورة مجملة



